الفصل الثَّالث

قصص وروايات جديدة للدكتور نجيب الكيلاني

وهي تضم :

١ ـ تمهيد .

٢ ـ مجموعة قصص الكابوس .

٣ ـ رواية ملكة العنب .

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

في الصفحات السابقة رأينا نماذج من قصص الدكتور نجيب الكيلاني، وعرضنا لكثير من الأمور التي برز من خلال هذه القصص، وكانت الرؤية الإسلامية الواضحة هي المعيار في هذا العرض، أو النقد، ولعلَّ الدكتور نجيب الكيلاني في دفاعه عن قصصه أراد تقسيم هذه القصص إلى مجموعتين، فعدَّ في مجال الرواية ثلاث عشرة رواية، ومجموعة قصص قصيرة واحدة، ومسرحية واحدة وثلاثة دواوين شعرية[1]، وهذا يعني أنَّه يخرج بقية الروايات من هذا الأدب[2].

ولكنَّ ذلك لا يعفي الكاتب من المسؤولية، ففي الإسلام لا يُقبل الانفصام بين الفكر والسلوك، أو بين الاعتقاد والنشاط، ولا يمكن أن نقبل من المفكر أن يكون مسلماً في جانب، وخارجاً عن الإسلام في جانب آخر، فكيف إذا كان الكاتب منذ مراحل دراسته المبكرة يتصدىٰ للتنظير في قضية الأدب الإسلامي فيكتب «الإسلامية والمذاهب الأدبية» بعد أن ينشر عدداً من المقالات حول هذا الأمر[3].

---

(١) انظر كتاب (آفاق الأدب الإسلامي) للدكتور نجيب الكيلاني، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م، مؤسسة الرسالة/ ٧ ـ ٨.

(٢) انظر كتاب (تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية) د. نجيب الكيلاني ط ١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م، دار ابن حزم، ص ٢٥، وإن كان في غير هذا الكتاب يعدها من الأدب الإسلامي.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥.

فالدكتور الكيلاني لا يمكن أن يكون غير أديب إسلامي في كل ما تركه من القصة والرواية والمسرح والشعر والنقد، وعلى أساس هذا التصور قدمنا قصصه ورواياته، وعرضنا النماذج السابقة وغيرها، وسوف نعرض النماذج اللاحقة.

ولا يضير الكاتب ـ كما قلنا ـ أن يصيب ويخطىء، فهذه طبيعة البشر، والتجربة الإنسانية، ولا يعيبه أن يكشف عن بعض تجاربه من خلال النقد الإسلامي، وتصدر بعض الأحكام التي تبتعد عن المدح، وتلتزم الجدية والحقيقة. فالرجل له تجربته الطويلة، وله إسهاماته الكثيرة، وله قدمه الراسخة في فن القصة، حيث لا ينكر ذلك عليه إلاَّ جحود جاهل، فلقد قدَّم في مجال القصة والرواية ما يزيد على ثلاثين كتاباً، فضلاً عن الشعر والمسرحية والنقد والدراسات الاجتماعية.

* * *

ومن خلال استعراض سريع لمسيرة الكاتب في مجال القصة والرواية يبدو لي أنَّه كاتب موهوب، وفنان أديب بكل ما تعني هذه الكلمة من معنىٰ. ولقد أعطىٰ لهذه الموهبة حقها من الروافد الثقافية، والتجارب الاجتماعية والفكرية المختلفة، ممَّا زادها نضوجاً وتعمّقاً ووضوحاً، وكانت القصة هي أسلوبه المفضل، في الحديث العادي، والأدب المبدع، والشعر وسائر الفنون التي أسهم فيها.

وكانت كتاباته القصصية تندرج في ثلاثة محاور واضحة وهي كما يلي:

١ ـ القصص والروايات التي كتبها استجابة لدواعي الأدب، والموهبة الأدبية، وعالج من خلالها بعض القضايا والمشكلات الاجتماعية بصورة أساسية، والقضايا الفكرية والسياسية بصورة ثانوية وكان في هذا المحور قريباً ـ في تصوره ونظراته ـ من القصور الاجتماعي السائد، والأفكار الشائعة، والأوضاع السياسية المهيمنة على مصر بالتحديد.

ولا يمنع هذا من ظهور بعض الروح الإسلامية عبر هذه القصص. دون أن تكون طابعاً مميزاً، أو نابعة من تصور واضح[1].

(١) وينطبق على هذا النوع كثير من القصص والروايات التي استعرضناها في هذه الدراسة.

٢ ـ القصص التي استوحاها من التاريخ البعيد والقريب لتكون نموذجاً للقصة الإسلامية، وليتميز بها عن غيره، ولتتناسب مع نشأته، وتوجهاته الفكرية والسياسية، ومعاناته أثناء دراسته التي أدَّت إلى سجنه.

ويُضاف إلى هذا النوع القصص التي استوحىٰ أحداثها من تاريخ الشعوب الإسلامية مثل (عذراء جاكرتا، وعمالقة الشمال، وليالي تركستان، والظل الأسود) أو كانت تمثل قضية عامة لا يختلف عليها المجتمع كاحتلال فلسطين عامة، وبيت المقدس خاصة في روايته (عمر يظهر في القدس)[١] ورواية (دم لفطير صهيون) ورواية (نابليون في الأزهر، أو مواكب الأحرار) ولم يكن في هذه القصص واضح التصور، لأنَّها تمثِّل جانباً تاريخياً.

٣ ـ القصص والروايات الإسلامية ذات التصور الواضح، وهي القصص التي ترك فيها تردده بين مقتضيات هذا الفن بمفهومه الغربي، ومقتضيات التصور الإسلامي الذي لا يقبل الشرك في هذا الأمر وغيره.

وأعدُّ رواية (عمر يظهر في القدس)[٢] أول هذه القصص ـ وإن كانت من المحور السابق، ولعلَّنا نعرض في الصفحات القادمة بعض هذه النماذج التي تمثل هذا المحور، ونترك القصص الأُخرىٰ لكي تكون مجالاً لرؤية المهتمين بالأدب الإسلامي كنماذج جديدة عن القصة الإسلامية المعاصرة.

مجموعة «الكابوس» وقصص أُخرىٰ

من الكتب التي صدرت حديثاً للدكتور نجيب الكيلاني في مجموعة قصصية بعنوان (الكابوس)[٣]، وهي تضم ست عشرة قصة، وكثير منها يمثل بعض تجارب الكاتب في سنواته الأخيرة، وهي في مجملها تحمل تصور الكاتب في قضايا مهمة، بعضها سياسي، وبعضها فكري، وبعضها اجتماعي.

---

(١) انظر كتابي (في الأدب الإسلامي المعاصر) وما كتبته عن هذه الروايات. وانظر كتاب (رحلتي مع الأدب الإسلامي) د. نجيب الكيلاني/ ١٥٠.

(٢) عرضت هذه القصة في كتابي الأول (في الأدب الإسلامي المعاصر).

(٣) الطبعة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م، مؤسسة الرسالة.

ففي القصة الأُولىٰ «الكابوس» التي سمىٰ المجموعة باسمها يتحدث عن عبد الناصر وقد عانىٰ من كابوس أثناء نومه فرأىٰ نفسه وكأنَّه يقف في مشهد الحشر يوم القيامة ليلقىٰ حسابه، ومن خلال هذه الوقفة يستعرض عدداً من القضايا والمواقف والأحداث التي عرفت أثناء حكمه، إنَّه الزعيم الذي يفتح عينيه بعد إغماض ليجد نفسه وسط حشد كبير دون أي احترام. إنَّه كما كان يطلق عليه «قاهر الأعداء ومحطم الملوك، وباعث الثورة والتمرد في كثير من الأقطار» ولكنه هنا دون حُرّاس أو حُجّاب، ويرىٰ بعض من قتلهم، أو حكم عليهم بالإعدام، وهو طائر بأجنحةٍ بيضاء، مشرق الوجه، والنور يفيض حوله من كل جانب، بينما بدا هو كما وصفه أحد موظفيه «أسود الوجه، متحشرج الكلمات، متقرّح العيون، منظره منفِّر يبعث على القرف» وهو بلا حول ولا قوة، يكاد يقتله الظمأ. وقد وصف الكاتب عهده بلسان خلفه: «المرحوم ترك أجزاء كثيرة من بلادنا محتلة، وكما ترك البلاد وهي مثقلة بالديون، وأفسد العلاقة بين طبقات الشعب الواحد، وبين الفرد والفرد»[1].

لقد كانت هذه القصة المتخيلة محاكمة لعهد عبد الناصر، استخدم فيها الكاتب ما لديه من وثائق، وما نشر من حقائق بعد موته.

كما استخدم ما روي عن الآخرة، والحشر ويوم الحساب، وعرض كثيراً من الجرائم التي كشف عنها بعد وفاة عبد الناصر.

وإذا كانت القصة تدور كلها حول عبد الناصر، ومصيره، واستعراض المآسي التي تركها بعد حكم ناف على عشرين عاماً، ولخصها الكاتب بهذه الكلمات «الهزيمة، الجوع، الخوف، الديون، الأفكار السامة، الضحايا».

إذا كانت القصة كذلك فإنَّها بالوقت نفسه تحاكم الأنظمة الاشتراكية في الوطن العربي كله، وتحاكم الأنظمة المستبدة في كثير من البقاع.

* * *

وفي قصة الغريب يتحدث عن نمط من الناس لا شخصية لهم، يلبس أحدهم في كل موقف اللباس الذي يتناسب مع هذا الموقف، ويتلون «بالفكر

---

(١) الكابوس/ ١٤.

والعواطف والسلوك» باللون الذي يرضي المدير، هكذا كانت شخصية حسان في حياة الغربة. لقد ماتت في داخله كل نوازع الفطرة السليمة، والشخصية المتميزة، والقيم التي يحترمها الناس من أجل الحصول على المال.

إنَّه يماشي العصر بكل ما فيه من كذب ونفاق: يذلّ لمركز النفوذ. وينكشف حسان أمام الشخصية المسلمة التي لا يستطيع أن يخدعها أو يغشها، فيقف معترفاً أمام المدير الجديد المستقيم ويصف نفسه:

«وهكذا تراني كل يوم في حال: إمَّا مقامر، أو تاجر للرقيق الأبيض، أو لص، أو سكير عربيد، أو تابع للست»[1].

وبعد تعامله مع الرجل المستقيم يبكي ندماً ويتوب ويعلن وهو متأسف قائلاً: مللت النفاق، كرهت الأقنعة الزائفة، حياتي أحقر حياة، الغربة أفسدت كل المعاني النبيلة فيَّ الخوف جعلني أدوس أسمىٰ القيم، الجشع جعلني أغمض عيني عن كل ظلم، وأرضىٰ بكل خطيئة، وأضحك لكلمات مديري الساقطة السمجة، وأطري جمال زوجته برغم دمامتها، وأبتسم في وجه من أريد أن أبصق عليه»[2].

ويضع الكاتب يد القارىء على ظاهرة خطيرة، أوجدتها حياة الغربة حين اضطُرَّ آلاف الناس من شتّىٰ المهن والتخصصات العلمية المختلفة السفر، وتركت وطنها طلباً للرزق، أو الثراء في دول الخليج العربية. وهناك تشكلت مجتمعات جديدة: تطورت العادات، واختلفت القيم، أصبح المال والثروة، وسدّ الحاجة الملحة التي دفعت هذه الجموع للسفر، أصبح ذلك دافعاً لتصرفات وسلوك جديد مثل: النفاق، والخضوع لمن يملك المال، والمال فقط أحياناً، واختفاء قيم وظهور قيم جديدة...

هكذا تنتهي هذه القصة بحادثة مروعة يموت فيها حسان وتنكشف حقيقته الغريبة، وشخصيته المتناقضة، والصراع الذي كان يحتدم داخله كما وصفته زوجته: «أجل، كان زوجي يسكر كل ليلة، والغريب أنَّه يذهب إلى بيت المدير

---

(١) الكابوس/ ٤٠.
(٢) الكابوس/ ٤٢.

عند الفجر ليذهبا إلى الصلاة، وفي البيت يقذف بنفسه في السهرات الحمراء»[1].

لقد مات حسان وفي جيبه زجاجة ويسكي، وفي الجيب الآخر مصحف صغير، مات غريباً في الطريق بين دبي والشارقة في الغربة، وهذا بعض الثمن.

* * *

وقصة ساحل الذهب تصور الأحلام التي تراود كثيراً من الفقراء والمحتاجين من أبناء الشعوب الآسيوية في سفرهم لإمارات الخليج العربي، حيث يعانون في أوطانهم قسوة الحياة، والفقر والأمراض، ويلوح لهم الحلم في الوصول إلى منطقة الخليج، التي تحوي كنوزاً لا تنفذ، والطباخ ينال أكثر من ثلاثمئة روبية في الشهر، والتجارة رائجة. لقد أصبحت القيم عند هؤلاء مرتبطة بالعمل والمال، ولا قيمة لشيء مع الفقر والحاجة. وأصبحت المنطقة ملاذ أحلام الشعوب البائسة.

وتحمل الباخرة ضعف حمولتها من الرجال المسافرين وراء الحلم، ويموت بعضهم، ويصطدم الركاب مع بعضهم، وتدور معركة قاسية بالسكاكين والخناجر من أجل حادثة سرقة، ويموت بعض المشاركين في المعركة وتضطرب السفينة، ويُلقىٰ الأموات في البحر كأيَّة خرقة بالية.

ثمَّ تصل السفينة إلى قرب الشاطىء. وهناك لا ينتظرون الظلام لينزلوا إلى الساحل، ونزلوا في المياه الضحلة، فغرق بعضهم، ووصل الآخرون، ولكنهم لم يجدوا أكداس الذهب، بل بدأوا يصارعون قسوة الطبيعة، ويكسرون حدة الحر البشع بإصرارهم وعرقهم، ليستطيعوا تأمين عيشهم وعيش ذويهم.

إنَّها تصوِّر شطراً من الحياة والعمل، وتهافت الآلاف من الهند وباكستان وبنغلادش وغيرها نحو المنطقة مجازفين بحياتهم، أملاً في تحقيق بعض آمالهم، والتخفيف من أعباء ما يعانون من ويلات وعذاب ثمَّ تتحطم الأحلام مع قساوة الحياة، وشدة الصراع.

* * *

---

(١) المصدر السابق/ ٤٥.

وفي قصة الجبابرة يعرض صورة من التقاليد التي ما زالت تتحكم في بعض البيئات الإسلامية في منطقة الخليج. ولاسيَّما في مسألة الزواج ومعاملة المرأة، ومن خلال قصة (سهام) وحلمها الجميل في تقدم الشاب (سلطان بن علي) لخطبتها، ثمَّ وقوع المفاجأة المفجعة حيث جاء (علي الأب) فخطب سهام لنفسه، وقبل أبوها بذلك، ولمَّا استفسرت من أبيها قائلة: «علي أم ابنه سلطان؟» كان جوابه لها بأن رفع كفاً غليظة، وهوىٰ بها على وجه ابنته وهو يهدر: «قلت علي.. ولقد وافقت.. أتفهمين؟ أنا الذي أختار.. أتفهمين؟»[1]. بهذه العبارة صوَّر الكاتب هذه المأساة، وصوَّر المرض الذي يقتل إنسانية المرأة، ويحيل الأب الحاني إلى جبار من الجبابرة. وأحسن الكاتب حين صوَّر هذه المأساة في نظرة الفتاة بهذه الصورة: «اسودَّ كل شيء في وجهها، تحول الوجود إلى مستنقعات.. وأشلاء، وطيور جارحة، وغربان سوداء، وذئاب تعوي، ومشانق، وضراعات، ووجوه كالحة قاسية مكفهرة، وأياد تمسك بالسياط.. عالم من شقاء وفساد».. ثمَّ صور مثل هذا الأب بقوله: «جبابرة.. لا يرحمون.. لا يرحمون» وكان مصير الشاب سلطان لتصرف أبيه الذي دفعته الرغبة الخاصة بالمتعة الحسية لخطبة الفتاة التي أرادها ابنه إلى نفسه، كان مصيره أن يركب البحر إلى الشاطىء الشرقي ويلقىٰ حتفه في عرض الصحراء الشاسعة[2].

* * *

والقصة التي تحمل عنوان العار تعرض صورة للعادات التي تقضي على التفكير والحلم، وتدفع للظلم. ولكنَّ العلم والوعي يؤديان إلى القضاء على بعض هذه العادات، ويكشف أمام الناس الحقائق التي تقضي على الأوهام.

* * *

قصة ليلة الزفاف أيضاً، تصور بعض العادات الاجتماعية التي تمتهن المرأة، وتعدها زوجة أو خادمة أو ممرضة أو أي شيء يستمتع به الرجل، أو يحقق راحته. والقصة تصور زواجاً لفتاة صغيرة لا تتجاوز السابعة عشرة برجل

---

(١) الكابوس/ ٥٩.

(٢) الكابوس/ ٦٠.

ينوف على الستين، يعرج ويسعل، وترتعش يداه، وتتمايل رأسه، وضعف بصره لدرجة كبيرة. كان يعيش بماضيه: «لقد كنت فارساً لا يشق له غبار.. حاربت.. وقتلت.. وتزوجت كثيراً. الناس تعرف من أنا. كنت أبث الرعب في قلوب الجميع.. بل كنت الرعب نفسه، كنت أقتنص النساء والأطفال، وأبيعهم في سوق العبيد خارج البلاد»[1]. واستطاعت الفتاة (نورة) باستخدام طريق السخرية من هذا الرجل وهو في هذه السن أن تتخلص منه، عندما عجز عن أن ينالها بالضرب أو يصل إليها بسوء، ووقع على الأرض، وهو يلهث ويصيح بعد أن حضرت نساؤه وبعض أولاده وقد شعر بالإذلال: «لا أريد هذه الشيطانة، اذهبوا بها لأبيها.. هي طالق.. طالق.. طالق» وانتهت من كارثتها وهي لا تصدق وكأنَّها كانت في الكهف لمائة عام برغم أنَّها لم تجلس معه سوىٰ ساعات قليلة.

* * *

وفي قصة (الجو بارد) يعرض لنا صورة عصرية حيث يصبح المال والربح كل شيء، ولا تهم الوسيلة. كل القيم تداس وتختفي أمام المال: «إنَّ كلمة السر في دنيا المال والربح هي المرأة» هذه سمة العصر، وسمة الأعمال التجارية الكبيرة عند هؤلاء الناس الذين يرددون مع بطل هذه القصة «في حياتي العملية أبحث دائماً عن أقصر طريق، وأرخص وسيلة للمواصلات»[2]. وفي سبيل ذلك تحوَّل الزوج إلى ديوث لا تهزه كلمة العرض والشرف، وهو يرىٰ زوجته التي جعلها مصيدة تسقط، فتحتقره رغم سقوطها «عدنا إلى المسكن الحزين، لم نعد إليه صامتين، لأنَّه لم يكف عن الثرثرة والتشدق بكلمات ضخمة ـ كالشعارات التي نسمعها في عالم السياسة ـ عن الشرف، وعن أصالتي ومعدني الطيب، وعفة أخلاقي».

وعندما واجهته الزوجة بالحقيقة، وقالت له عن صديقه التاجر الذي دفعها لإغرائه «لقد خدعني، نال مني كل شيء دون أن أنال منه شيئاً، لو كنت مكانك لذهبت إليه على الفور وانتقمت لشرفي».

---

(١) الكابوس/ ٦٧.

(٢) المصدر السابق/ ٧٧.

فأجابها وهو يلوح بيده في غيظ: «ما جئنا هذه البلاد لنقتل، جئنا للعمل.. أتفهمين؟؟»[1].

وانتهت القصة بقتل الزوجة لزوجها انتقاماً لشرفها.

إنَّ القصة تصور شريحة من هذه المجتمعات التي يختلط فيها الناس، يأتون للمال، بعضهم يحصل على المال بالتعب والعرق، وبعضهم بالتجارة المحرمة، وبعضهم يتاجر بالجنس.. المال أصبح غاية عند كثير من الناس في هذه المجتمعات، أصبح فتنة تموت أمامها القيم، وتختفي الحقائق، ويقل الوازع الخلقي. إنَّها صورة عصرية للمجتمعات التي أصبح المال يحكم أخلاق الناس وحياتهم.

* * *

بعد القصص السابقة التي كانت من موحيات عمل الكاتب في منطقة الخليج عاد ليعرض لنا صورة أخرىٰ من صور الاضطهاد والظلم والجبروت السياسي، من خلال قصة «الحلم الرائع»، حيث يقف وليد على شاطىء البحر في إحدىٰ الإمارات العربية وهو يتذكر ماضي أيامه التي أسماها الحلم الرائع. لقد أحبَّ فتاة جميلة ساذجة «حميدة» وتقدم لخطبتها ثمَّ تزوجا. ومرَّت به بعض المتاعب لأنَّ زوجته هذه «تحب الذهاب إلى السينما، ولا تكاد تمر ليلة إلاَّ وتفكر في زيارة إحدىٰ صديقاتها، وهي تتعشق أشياء كثيرة، وتتشبث بها كطفلة عنيدة، وتصر إصراراً جازماً عليها... وسرعان ما تزهد فيها، وترمي بها في خزانة المهملات... فلم يكن غريباً أن يكون لديها عشرات من قطع الملابس والنظارات والأحذية والقصص العاطفية، وكتالوجات الصور، وأنواع عديدة من راديوهات الترانزستور، وتوكات الشعر والبروشات...»[2].

هذه الصورة توضح لنا نوعاً من النساء اللواتي تخدعهنَّ المظاهر. وتمتلكهنَّ الأزياء، والصور العصرية البراقة حتى تصبح جزءاً من حياتهنَّ، بل تصبح من الأمور الضرورية الأساسية عندهنَّ. ثمَّ يتعرض وليد للمحنة، يعتقل بسبب رأي سياسي، وكانت حميدة تصرخ وتبكي وتشد شعرها، لقد كانت

---

(١) المصدر السابق/ ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) المصدر السابق/ ٨٢.

جزعة حتى فقدت صبرها. أمضىٰ وليد عاماً ونصف عام ثمَّ خرج من السجن، وبدلاً من الفرح بالعودة إلى بيته يُفاجأ بامرأته الساذجة تقول له: «إنَّ دخول السجن لا يشرف أحداً».. «السجن عار.. عار كبير» وردَّ عليها: «يجب أن تفهمي يا عزيزتي أنَّه شرف، شرف كبير وأنا لم أرتكب جُرماً بالمعنىٰ الصحيح، كان لي رأي وكتبته»(١). ولكنها قالت في تأفف: «كل ما أعلمه أنَّك تركتني أعاني الخوف والحرمان والأرق.. من أنت حتى تتحدى الطوفان؟؟».

لقد استطاعت السلطات الحاكمة، والمخابرات ترويضها على الخضوع وعدم التنكير إلاَّ بالأكل والشرب، ومطالب الحياة الحيوانية، والمتاع» مستغلة ضعفها نحو المظاهر، وكلفها الشديد بالحياة والملبس والاستمتاع بالحياة.

لذلك قالت حميدة لوليد بصراحة: «وبعد التجربة المريرة ملت إلى رأيهم ـ أي السلطات ـ كان يجب ألاَّ تفكر في شيء سوىٰ عملك وبيتك ـ وليذهب كل شيء بعد ذلك إلى الجحيم. إنَّ الوطن الذي تتحدث عنه لم يرسل أحداً إلى ليلة العيد ليقول كل عام وأنت بخير يا حميدة، لم يكن يزورني إلاَّ رجل من رجال الاستخبارات» ثمَّ تنهدت قائلة: «وكان يعدني كل مرة بأنَّك سوف يفرج عنك في الأسبوع القادم.. كل مرة يقول ذلك.. أتفهم؟؟ وكنت أقبل يديه ورجليه من أجلك، كنت أريدك بأي ثمن.. ولم ترد على ذهني كلمة الوطن.. الجوعىٰ والمحرومون يفكرون في أشياء غير تلك التي يفكر فيها المتخمون، ويرتكبون حماقات محزنة»(٢).

وحاول دفع الشك، وتهدئة زوجته، ولكنه تذكر قول أحد رجال الاستخبارات: «لقد عفونا عنك لتبدأ حياة جديدة، إنَّ زوجتك عاقلة وجميلة» وقال آخر: «أهم ما في زوجته أنَّها خلَّصت نفسها من هوس المبادىء» وانتهىٰ الأمر بأحدهم أن يكتب له خطاباً يقول فيه: «كانت زوجتك تلعب لعبة قذرة مع رجل من رجال الاستخبارات، المهم أنَّها نجحت.. مبروك عليك»(٣) ثمَّ تمَّ الطلاق.

---

(١) المصدر السابق/ ٨٤.
(٢) المصدر السابق/ ٨٥.
(٣) المصدر السابق/ ٨٦ ـ ٨٧.

واحدة من مآسي الاضطهاد، والأوضاع الظالمة، حيث تكتم الأفواه ويساق الناس إلى السجون لأنَّهم يقولون رأيهم في أوضاع بلدانهم. ولكن أليست صورة حميدة الأولىٰ، الساذجة، المحبة للمظاهر، وحبها للظهور، أليست هذه الصورة تساعد على السقوط والفتنة، وإيثار المتعة الحاضرة على القيم.

لقد علَّمنا الإسلام كيف نختار الزوجة الصالحة التي تحفظ زوجها إن غاب عنها، وضع لنا القيم الأساسية لبناء الحياة الأسرية حتى تتماسك، فلا تهوي أمام الضربات والمغريات، إنَّها تعلم أنَّ حياتها في ظلال الله عزَّ وجلّ، وصبرها مآله إلى سعادة لا حدود لها. كم هنَّ أولئك النساء اللواتي ضربن أروع الأمثلة في الصبر والشجاعة والشرف، والثقة قبل ذلك وبعده بما عند الله عزَّ وجلّ، إنَّها صورة جديدة من الصور التي عرضها لنا الكاتب في هذه المجموعة.

وفي القصة التالية «رجل في الزحام» يعرض لنا الكاتب صورة من مآسي عام ١٩٦٥ في مصر، عندما جرت حملة اعتقالات كبيرة، وراحت صحف السلطة، ووسائل الإعلام تصور للناس مؤامرة خطيرة سوف تقضي على الحياة... هكذا كانوا يفعلون. والصورة التي وضعها الكاتب أمامنا ذات دلالة، لأنَّها تدور حول (سيد عبد الباري) الرجل الريفي الطيب، لا يقرأ ولا يكتب. ولا يعرف من الحروف التي خلقها الله إلاَّ التوقيع باسمه، ودهمت الشرطة بيته وأخذوه والناس لا يكادون يصدِّقون، وهم في دهشة، «سيد عبد الباري مستقيم، حياته في غالبها كالمثلث المتساوي الأضلاع، إحدىٰ زواياه في البيت، والثانية المسجد، والثَّالثة الغيط» «وسيد عبد الباري نفسه كان مذهولاً من ذلك»[1] وفوجيء في مركز الشرطة أنَّه أحد معتقلي الإخوان المسلمين، شعر بفرح داخلي لأنَّه لم يكن وحده، فهناك عدد من أهل القرية الذين يعرفهم من قديم، وليست هناك جريمة مخلَّة بالشرف. ولكنه عندما فكر بالأمر لم يصل إلى جواب، ما هي حكاية الإخوان هذه؟ إنَّه لا يتذكر شيئاً من هذا، كان يسمع عنهم، ويصلِّي أحياناً معهم، واشترك في بعض الاحتفالات

(١) الكابوس/ ٨٩.

التي يتكلمون فيها عن السيرة النبوية، وقصص الصالحين والزهّاد والصابرين.

وتمضي الأيام به في السجن وهو واثق ألفاً في المائة أنَّه لا صلة له بشيء من هذا كله، وربما اعتقلوه خطأً، تشابه في الاسم مثلاً، أو مكيدة صغيرة من حقود وبالتأكيد سيكتشفون أنَّه مظلوم، وأنَّه لا دخل له بشيء، لأنَّ الحاكمين رجال ثورة العمال والفلاحين، وسيد عبد الباري فلاح أصيل ابن فلاح ومحاصيله من أحسن محاصيل أهل البلد، ولذلك نال جائزة على الإنتاج، ولكنَّ رئيس الجمعية اقتنص نصفها. وهذه حقيقة الثورة، وطبيعة الحكم ورجال الحكم. دعاوىٰ فارغة، وشعارات براقة، والمظالم توزع على الناس، بلا تمييز.

كان سيد عبد الباري يسمع عن المساجين، أنَّ بعضهم كان زعيماً للطلبة، وبعضهم حارب ضد اليهود في فلسطين، أو قاتل الإنجليز في القناة، أو عضواً في الإخوان. وكان ينتظر أن يُنادىٰ عليه حتى يعود إلى بيته. وسمع اسمه في ساحة المعتقل ففرح، وصار المعتقلون يهنئونه ويقبلون رأسه ويحملونه رسائلهم الشفوية ووصاياهم لذويهم، وخرج وهو متألم لفراق هؤلاء الذين أمضىٰ معهم هذه الأيام. ولكنه فوجىء بأنَّه ينقل إلى بناء آخر، ثمَّ يعقبون له وجهه ويكلمونه بأقذع الألفاظ والشتائم، ثمَّ خلعوا عنه ملابسه ومضىٰ «معصوب العينين عارياً كما ولدته أمه ـ رحمها الله ـ وملابسه في بقجة في يمينه، والعسكري يسحبه من يسراه»[1] وسمع أصوات السياط والسباب والاستغاثات والتأوُّهات عالم مليء بالرعب والكوابيس.

ويمضي المؤلف في تصوير المآسي التي تحدث في أقبية الأجهزة من تعذيب وإهانات وقتل لكل معاني الإنسانية والكرامة. كان سيد يحدث نفسه: قالوا إنَّه في بلاد الماو ماو، الناس ـ نساءً ورجالاً ـ يمشون عرايا، ويتبوَّلون في الشوارع ولم يكن يصدق، ولكنه اليوم يتأكد من ذلك.

أمَّا صور التعذيب فيعرض لنا الكاتب واحدة منها:

قيَّدوه، وربطوا يده، وعلَّقوه، كان مدلّىٰ في الهواء ولا يعرف المسافة

---

(١) المصدر السابق/ ٩٤ ـ ٩٥.

التي تفصل بينه وبين الأرض، أو بينه وبين السقف، رأسه أسفل، شعر باحتقان وصداع. . . »[1] وحينها بدأ التحقيق.

كانوا يسألونه عن أشياء لا يفهم عنها شيئاً على الإطلاق، ولا يستطيع أن يربط بين السؤال والسؤال، ولا الأسماء والأحداث، كانوا يريدونه أن يتكلم، فصار يتكلم عن أشياء تافهة في الغيط والحارة، وبعد هذا العذاب والتحقيق وهو مدلىٰ سمعهم سيد يقولون: إنَّه لا يفقه شيئاً، ولا فائدة منه، أنزلوه وأعيدوه حيث كان.

إنَّ سيد عبد الباري لا يستطيع أن يتذكر تفاصيل ما جرىٰ، كان يتحرك والعصابة على عينيه، ورجلاه تتحركان في اتجاهات شتىٰ، لا يعرف شرقاً من غرب ولا ليلاً من نهار، غارق في متاهة من الفوضىٰ والقسوة والضياع واليأس. لم ينقطع العويل والسباب والأسئلة والإجابات. . . يا رب رحمتك، مظلوم يا ناس الحكاية كلها تلفيق، كذب في كذب»[2].

بهذه العبارات صور الكاتب ما كان يجري في مصر من تنكيل بالناس، وتلفيق التهم للإسلاميين، وقتل للكرامة والحرية ومعاني الحياة.

وأعادوه إلى العنبر، ورأىٰ من حُنُوِّ المعتقلين عليه، والتخفيف عنه ما أنساه بعض آلامه، بين هؤلاء رأىٰ معاني الحياة والأُخوَّة، والشعور الإنساني النبيل رغم أنَّهم في السجن. لقد كان أُمِّياً فتعلم القراءة والكتابة وحفظ آيات من القرآن، وبعد عام ونصف في المعتقل قال: الحمد لله لقد نلت شهادة أعظم من الشهادة التي سلمها لي المحافظ.

إنَّ الكاتب ينجح في تصوير مآسي السجون، وينجح في اختيار العبارات الدالة الموحية، لأنَّه عاش تجربة السجن، وعرف مأساتها، ورأىٰ من صور الإذلال والإهانة ما لا يصدقه عقل. إنَّ ظاهرة السجن حرية بدراسة خاصة في أدب الكيلاني، بكل ما يدور حول السجن ويتعلق به من أمور السجن، والسجان، والسجين. الإجراءات والزنازين والعنابر، الأنظمة واللوائح. علاقات السجناء، الصور النفسية المختلفة والحالات التي يمر بها المساجين،

---

(١) المصدر السابق/ ٩٧.

(٢) المصدر السابق/ ٩٨.

صور الصراع النفسي عند بعض المأمورين في السجن. الصور الإنسانية والصور المأساوية... إلخ. صور كثيرة مبثوثة في قصص وروايات نجيب الكيلاني وهي بحاجة إلى رصد ودراسة كظاهرة من ظواهر أدبه القصصي[1].

في قصة (قلب امرأة) يتناول الكاتب مسألة اجتماعية مكرورة، وهي العقم. فسالم بطل القصة لم ينغص عليه حياته مع زوجته ليلىٰ غير الولد. وعندما لم يأته الولد هرب من هذا الواقع إلى الإثم: شُرب الخمر، وحضور الملهيات.. وتحولت حياة البيت إلى جحيم، صب جام غضبه على زوجته، واتهمها بأنَّها المسؤولة عن ذلك، رغم تأكيد الطبيب لها بأنَّها سليمة من العقم.

ويسافر سالم وتذهب ليلىٰ إلى الطبيب مرة أُخرىٰ، وتعلم منه أنَّ زوجها عقيم، ويتعجب الطبيب من إنكار سالم، وعدم إخبار زوجته بذلك. وعندما يعود من سفره تفاجئه بالحقيقة، وتظهر له الود والمحبة بالرغم من ادِّعائه أمامها بأنَّه تزوج، وأنَّ عليها أن ترضىٰ أو تذهب. ولكنها تجيبه: أنت لو تزوجت ثالثة ورابعة فلن أخرج من هنا لأنِّي فقط أُحبك، وقد يشفيني الله من عقمي في يوم من الأيام. وهنا يجيبها سالم: أوَتظنين أنَّني أستطيع أن أتزوج غيرك؟ كان مجرد امتحان لأتبيَّن صدق ولائك وحبك، وأخذت تضحك وتضحك[2]. وكما قلت فالموضوع يتكرر، ولا أرىٰ جديداً في القصة، والحل ليس موفقاً لأنَّ الكاتب صور سالماً وهو يغرق في الإثم ويسوء خلقه، ويرتكب المعاصي ويظلم زوجته، ثمَّ يظهره فجأة بأنَّه كان يمتحن زوجته.

فهل يمتحن زوجته بشرب الخمر، والسهر طيلة الليل والإساءة للزوجة والكذب عليها، الصورة غير موفقة، والحل ليس موفقاً، وكأنَّ ما فعله سالم لا غبار عليه، لأنَّ الحب هو المهم.

وقصة (الرجل والأرنب) تصور بؤس الفلاح المسكين، الذي طالما تحدث عنه الكاتب في قصصه ورواياته. إنَّها تحكي صورة من حلم الفلاح باليسر، والأكل الطيب، كما أنَّها تحكي صورة القرية البائسة، ولاسيَّما زمن

---

(١) لعلَّني أُوفق إلى إخراج دراسة عن هذه الظاهرة، وظاهرة الريف ومشاكله أيضاً وبعض الظواهر الأخرىٰ التي تتميز بها قصص الكيلاني.

(٢) المصدر السابق ص ١١٤.

الاحتلال الإنجليزي لمصر، وما تبعها، أثناء الحرب العالمية، حيث لم يكن في القرية مستشفىٰ ولا طبيب، بل يقوم الحلاق بدور الطبيب، ويكون العلاج بالوصفات الشعبية، وبعض المأكولات والمشروبات الطبيعية. والناس لا يجدون الرغيف الذي يأكلونه رغم أنَّ الأرض تعطي وتنبت. ولكنَّ المحصول تصادره الدولة بثمن بخس، ولقد كان تعبير الكاتب عن ذلك لطيفاً حين قال بأنَّ الناس يعانون من فقر الدم في الريف فتساءلت إحدىٰ النسوة: لماذا يعاني الناس من فقر الدم ولا تعاني البهائم؟ فردَّ عليها زوجها مازحاً ـ وهو صادق ـ لأنَّ الحكومة تمصّ دم الفلاحين، ألا ترين أنَّهم يجمعون محاصيل القمح ويأخذونها بأرخص الأسعار[1].

وهكذا يقضي عبد الله السروجي بعد أن سقط وفقد وعيه أياماً وهو يحلم بلحم الأرنب، ولمَّا جاءت إحدىٰ القرويات له بأرنب وذبحوه، وقدموه له لم يستطع أن يزدرد اللقمة أو يبلع شيئاً منه ومات وهو يحلم بالأرنب.

لقد كان أُسلوب الكاتب في القصة شاعرياً، وكان وصفه معبراً، وإن كان بسيطاً.

* * *

وقصة (الرقيق الأبيض) تصور لنا المال الذي تدفق على أهل الخليج فصار عند بعضهم سبباً للفساد والفتنة، وكانت لبنان قبل أن تمزقها الحرب، مرتعاً لكثير من الذين يريدون اقتناص اللذة الحرام. (عبد العزيز) بطل القصة، كان ـ كما وصفه الكاتب ـ بالأمس يخاف الله، ويتردد في اجتياز الحاجز الذي يفصل بين الفضيلة والرذيلة، ولديه الزوجة الجميلة، والماضي النظيف. ولكنه اليوم يسعىٰ لاقتناص اللذة من امرأة لعوب، من بائعات الهوىٰ هناك. يطاردها فتمتنع. تبدي إعجابها به لدرجة يظن أنَّها سترتمي بين يديه، ثمَّ تبتعد عنه بعد أن تشعل في صدره نيران الشهوة، ويظل هكذا بين حانق عليها، غاضب منها، يريد أن ينتقم لنفسه، وبين مطارد متذلل يبذل ما تريد ليصل إلى بغيته، وهي تساوم وتصد، وتقترب لكي تنال أكثر وأكثر من هذا الذي لا يعرف تجارة الدعارة. وبين الحين والحين يصل إلى حد اليأس منها فيتذكر زوجته وأولاده

(١) الكابوس/ ١١٩.

وبيته على أطراف الصحراء البعيدة. هناك حيث الحياة خالية من العقد والإغراء والأحزان.

ولكنَّ الملعونة كانت تعرف أنَّها أوقدت في صدره ناراً لن تنطفىء إلَّا بما تريد، وظلَّ عبد العزيز يعاني الأرق، حتى جاءته، وأخذت منه ثلاثة آلاف ليرة بدلاً من أجرها المعتاد خمسين ليرة، ومضت بعيداً عنه بعد تلك الليلة. ولعلَّه بعدها أفاق ليشعر أنَّ نار شهر (آب ـ أغسطس) في قلب الصحراء أنقىٰ وأطهر من هذا الذي هو فيه. إنَّه يجري وأمثاله هنا وهناك بحثاً عن السعادة، والنشوة. بعد أن عُميت عيونهم عن الحقيقة بأنَّ السعادة ليست في أسواق الرقيق الأبيض وليست في الحرام، وليس في بذل المال في كل هذا، وإنَّما السعادة في النفس الطائعة الراضية التي تحس برضىٰ الله وتأنس بعبوديته، إنَّها صورة من فتنة المال.

وأراد الكاتب أن يصور معاناة الأديب، وحقيقة الأدب، فعرض لنا قصة رجل بسيط حالم بالشهرة والقاهرة والأدب، فراح يلتمس السبل دون أن تكون لديه الموهبة الحقيقية، أو القدرة على أن يكون أديباً، لذلك سافر من أسيوط للقاهرة، ترك بلده وعمله وأرضه طمعاً بالمجد، ولكنَّه هناك، وبعد إخفاقات كثيرة عاد إلى الواقع بعد الصدمات التي رآها، وبعد أن ساعدته زوجته على التفكيْر في الواقع، والرجوع إلى الواقع، وعدم تضخيم بعض الظواهر حتى تصبح أحلاماً كاذبة تتعب صاحبها، فيضيع ويضيع معه من يعول.

لقد عرض الكاتب من خلال قصة محمَّد البكري في (الدليل التائه) وزوجته إلى كثير من حقائق الحياة الأدبية، والإعلامية، والصحافة، والنشر والأدب، وعالم المتأدِّبين، والعمل والمجتمع. وخرج بذلك عن القضايا التي كانت تتردد كثيراً في قصصه.

* * *

وفي قصة (الإنسان والآلة) يسير في الطريق ذاتها تقريباً، فيعرض لأحلام المهندس أحمد عزت، المهووس بالآلة والتخطيط والاختراع والاكتشافات الجديدة.

لقد خرجت الآلة من كونها وسيلة تستخدم في حس المهندس إلى كونها

سيدة تطاع، وتُخدم وتُحترم، ويبذل من أجلها المال والعمر والجهد والعواطف.

إنَّه انحراف في التفكير حين تغدو الآلة موضع حب وإعجاب، تهفو إليها المشاعر، ويحزن في محرابها أو يفرح الناس.

هذه قصة المهندس أحمد عزت الذي اختارته قدرية خطيباً لها، وكانت تصارع من أجل إخراج خطيبها من هذا الوهم لكي يفرق بين المشاعر الإنسانية التي لا تصرف إلَّا للإنسان، وبين استخدام الآلة وتطويرها لخدمة الإنسان، وكان هو يصارع من أجل الآلة أيضاً.

* * *

وقصتا (الطريق الشاق) و(البلاد البعيدة) قريبتان من القصص السابقة. لقد كان الكاتب في هذه المجموعة كما في بقية القصص والروايات التي نشرها أخيراً، واضح الرؤية والتصور، بعيداً عن استرضاء أحد إلَّا قناعاته في الأدب الإسلامي.

وهكذا أعطانا ألواناً جديدة جديرة بكل تقدير، وتستحق أن تنال اهتمام المشتغلين بالأدب الإسلامي، بدلاً من إلقاء الخطب والتصريحات، والركوض وراء النظريات والأضواء.

* * *

رواية (ملكة العنب)

حدَّثني الكاتب عنها باختصار في آخر لقاء بيننا[1]، وحين قرأتها أدركت أنَّ الكاتب أراد أن يترك إشارة لديَّ عن هذه القصة التي كتب تحت عنوانها (رواية من الأدب الإسلامي المعاصر).

نعم رواية، بل تصلح لأن تكون رواية طويلة بمئات الصفحات لو كان الكاتب من أصحاب النفس الطويل في كتابة الروايات، أو لو أراد أن يتعمَّق

(١) وكان ذلك في مدينة الرياض عام ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م.

أكثر في عرض الأحداث، والشخصيات، وسبر أغوارها ومكنوناتها، لكي تعرض لنا واقع أوطاننا العربية كلها، واقع الشعوب التي تُداس بالأقدام، واقع المآسي التي لم يعد لها حصر ولا حد في الأجسام والأسر والمجتمعات والعلم، وكما عبَّر عنها الكاتب في إحدىٰ قصصه: «يصعب في هذا الزمان، وفي هذه القرية بالذات تشخيص أي مرض، والسبب في ذلك أنَّ الأمراض الكثيرة تختلط في جسم الفلاح، لكن يظل دائماً الداء الأساسي هو الفقر. . . فقر الدم» نعم الفقر الذي وزعوه على كل الناس.

والفلاح هنا هو كل مواطن، والقرية كل بلدة، والأمراض حقاً اختلطت مع خلايا هذا الفلاح المواطن الذي «تدرَّب على الصبر طول حياته، حتى أصبح يستسيغ مرارته دون مشقة»[1].

* * *

والكاتب في الرواية، كأنَّه ودع التردد الذي كان ينتابه ـ كما يبدو لي ـ عند كتابة قصصه، هذا التردد الذي يجعله وسطاً بين منحىٰ الأدب الإسلامي، المنحىٰ الحقيقي الذي لا يقبل أن يكون ذيلاً تابعاً، لأنَّه يملك التصور الذي يجعله أصلاً يأتيه الناس وليس صدىً لأصوات الناس. المنحىٰ الذي يحقق التصور الإسلامي السليم بأسلوبه وأدواته وفكرته وهدفه ومضمونه. وقد يلتقي مع هذا المذهب في نقطة أو مسافة من الطريق، أو لون من الألوان أو يلتقي مع ذاك الاتجاه، ولكنه يظل متفرداً متميزاً.

الكاتب في روايته هذه ـ كما قلت ودع التردد بين منحىٰ الأدب الإسلامي الأصيل، ومنحىٰ المذاهب الأخرىٰ المُستقاة من المذاهب الغربية، أيّاً كانت مسمياتها، ومصادرها، وكان قراره هذا بعد تجربة طويلة ذات بعد وثراء كبيرين، وبعد تراث كبير من القصص التي تردد فيها بين هذين المنحنين.

وروايته هذه ليست الوحيدة، ولكنها ـ في نظري ـ الرواية المعاصرة التي تمثِّل منحىٰ القصة الإسلامية بحق. ولكنه كتب أيضاً في هذا المنحىٰ بعض القصص الأخرىٰ مثل: مجموعة قصص «الكابوس»، و«اعترافات

---

(١) مجموعة قصص (الكابوس/ ١٢٢ ـ ١٢٤).

عبد المتجلي» و «امرأة عبد المتجلي» و «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» وغيرها.

* * *

وهذه الرواية التي وصفها الكاتب بأنَّها من الأدب الإسلامي المعاصر، تخطّىٰ فيها حاجز الخوف، وعبَّر بحق عن أصالة أدبه الإسلامي حيث أعطىٰ موهبته كلها وقياده لهذا الأدب الذي يعرفه، فيعبِّر عنه بموهبته وتجربته، لا يخشىٰ النقاد الذين لا يرضون إلَّا بكل غريب مستغرب، أو صورة منكرة، أو أسلوب يرتدي أزياء العلمانيين. ومع ذلك لا يرضون لأنَّهم يعلمون أنَّ مسايرة المسلم لهم لن تدوم، وأنَّ غفلة البعض لن تستمر، وأنَّ طغيانهم إلى زوال مهما كانت لديهم من القوىٰ والوسائل والإمكانات، والله عزَّ وجلَّ يقول في محكم كتابه: ﴿**ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتى تتَّبع ملَّتهم، قل إنَّ هدىٰ الله هو الهدىٰ، ولئن اتَّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا نصير**﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠. والواقع المشهود في العالم الإسلامي بخاصة، والعالم كله بعامة يؤكد ذلك. ها هو العالم الذي تسيطر عليه قوىٰ يهود والنصارىٰ تحت أسماء حديثة لدول متقدمة؛ ديمقراطية، ترعىٰ حقوق الإنسان وتدافع عن النظام العالمي ـ كما يسمونه ـ ها هو ـ كما قلت ـ يشن حملة همجية ضد الإسلام والمسلمين في كل مكان. أوروبا كلها التي تدعي المدنية، وأمريكا، لم تحتمل أن يكون بينها بضعة ملايين يختارون بحريتهم أن يعيشوا في دولة لهم، باسم الديمقراطية في البوسنة والهرسك. وشنُّوا الحرب اليهودية الصليبية على المسلمين هناك ومزقوا بلادهم وراحوا يقتسمون أطفالهم ونساءهم تحت شعارات الإنسانية. وها هم يأخذون خيرات البلدان الإسلامية وكنوزها ـ التي لا يستطيعون الحياة بدونها ـ يأخذونها نهباً، وبأسعار رمزية، ويعيدونها لنا منتجات للترف والإفساد، والورم السرطاني، وبأثمان غالية جداً. وها هم لا يقبلون أن ينجح التيار الإسلامي في أي بلد من بلدان العالم الإسلامي، ولذلك يدعمون الحكومات التي انتهجت العلمانية لمطاردة هذه التيارات وقتل الشباب، ومعاقبة الشعب كله لأنَّه يتجه إلى الإسلام، ويريد العودة إلى الله. والأمثلة كثيرة.

وهذه هي الشعوب الإسلامية يمزقون وحدتها، ويدفعون بأشرارها لحمل السلاح، والاقتتال وتمزيق البلدان، ونهب كل شيء، حتى تصبح لقمة العيش حلماً يهون في سبيله كل شيء. الحرب الصليبية: حرب عسكرية، واقتصادية، وفكرية وإعلامية، وأدبية، وفنية وعلمية، و... وبكل الأسلحة التي يملكونها. فياعجباً بعدها للراكضين نحو الغرب وأمريكا باسم التقدم و (التكنولوجيا) والعلم، وأحياناً باسم الدعوة لينصروا الإسلام من هناك من واشنطن، أو لندن، أو باريس، أو... الإسلام لن ينتصر بالتقدم التكنولوجي، ولا بالاختراعات المتقدمة، ولا بأسلحة العلوم، ولا بالمعاهد الفكرية والندوات هنا وهناك. الإسلام ينتصر بالرجوع إلى =

وكان في الرواية، واضح الشخصية، واضح الرؤية، صادق التصوير.

لقد رسم شخصياتها من تصور واضح: كان الانحراف عند الإنسان خطأً شاذاً عن الفطرة، والخير فطرة كامنة في العمق. كان الناس يستجيبون لنداء الفطرة حين تتوافر الأسباب، وينحرفون حين تغيب أسباب الاستقامة، وتُترَكُ لعوامل السوء والشر والانحراف لتطغى. كانت مشاعر العاطفة والحب مشاعر إنسانية بعيدة عن غرائز الجنس ومثيراتها وصورها، مشاعر كريمة، ناعمة عميقة.

في تصوير الأحداث كان شجاعاً، لمّاحاً، يرسم خارطةً واسعة لما يدور، رغم أنَّ مظاهر الأحداث الجارية تبدو في القرية الصغيرة (الربايعة)، ولذلك فإنَّ القارىء يلمح بأنَّ الرواية صورة مختصرة، دقيقة ترمز لهذا المكان وذاك، وذلك...

لقد صوَّر الشخصية المسلمة الواعية، كما صوَّر الشخصية المسلمة البسيطة، وصور الفطرة السليمة، كما صور الفطرة التي انحرف صاحبها عن سواء السبيل.

صوَّر الخطأ بحدوده، في صورته الواقعية، دون تهويل أو تزويق أو تبرير كما يفعل بعضهم، وصور طريق التوبة والندم، وعودة الإنسان حين تصدمه الأحداث إلى الله بإخلاص وندم. صوَّر الطبيعة المتآلفة الحانية على الإنسان الطبيعة التي خلقها الله ليستخدمها الإنسان، فإذا بها تعطيه حين يبذر فيها الجد مع الإخلاص، ويسعى من أجل الرزق معتمداً على الخالق الرازق

= كتاب الله وسنة رسوله حقاً، بالتخلي عن كل شيء إلَّا عنهما، والتربية عليهما، وإخراج أي اهتمام آخر، مع الاستعداد الحقيقي ابتداء من تربية المسلم تربية إسلامية خالصة لا تشوبها شائبة من هنا أو هناك، ورفض دنياهم مهما كانت، لأنَّنا نستطيع بناء دنيانا على هدىٰ شريعتنا.

إنَّ الشعوب الإسلامية تستطيع الانتصار على كل أعدائها حين تنتصر على هذه التبعية وتنتصر على العبودية المستكنَّة فيها نحو الغرب، ودنيا أمريكا، وتقدم العالم، لو رفضنا أن نأكل أو نلبس إلَّا ما نستطيعه بأيدينا، واستغنينا عن كل ما لا نقدر على عمله، لشبع الجائع، واكتسىٰ العاري، وقوي الضعيف، وبدأنا بالظهور، وفي الوقت نفسه لبدأ الغرب وأمريكا بالموت لأنَّهم يعيشون على استهلاكنا، وابتعادنا عن ديننا، فهل نستفيق؟

سبحانه وتعالىٰ. ولم يجعل منها نقيضاً يصارع الإنسان، ويعترض طريقه، أو بتأبّىٰ على العطاء، ويعاكس الآمال.

صوَّر الحيوان وهو يتعاطف في ودٍّ مع الإنسان وهو ينظر إلى هذا المخلوق الأعجم المستخدم منه، والمخلوق من أجله، ينظر إليه بحنوّ وعطف ووفاء. لا يعذبه ولا ينساه. صوَّر المجتمع بعيون واعية صادقة، وقلب حساس صادق، وعقل ذكي لمَّاح، وبصيرة مستقيمة. ولم يخضع لمقاييس المذاهب الحديثة في تفسير الأوضاع وتبريرها، وإضفاء الشرعية على صور الانحراف، أو الغلوّ.

كتب عن الإسلام والمسلمين، والأحداث الجارية والنظام العالمي برؤية إسلامية، ولم ينسىٰ أن يبث همومه ورأيه، ولكنَّ ذلك كله من خلال تصور إسلامي واضح.

لم يهرب إلى التاريخ ليكتب القصة الإسلامية، ولم يغادر بعيداً عن وطنه إلى تركستان والحبشة ونيجيريا وأندونيسيا، فلقد أيقن أنَّ عالم المسلمين واحد. الإسلام هنا وهناك واحد، والعدو ينظر إلينا عدواً ينبغي استنزاف دمه، وأخذ ماله، وإذلاله وممارسة أشد أنواع التعذيب عليه قبل أن يقتله.

وفي الأُسلوب، تخلّىٰ بشجاعة عن شكليات الحداثة، ومظاهر التمدن التي أراد بعضهم أن يتربّىٰ بها، ليقبل عند العلمانيين. نعم تخلّىٰ بشجاعة وكتب بأُسلوب إسلامي، ولم يحسب حساباً لسلطات الأُسلوب الغربي والمفتونين بالغرب، والعملاء المستورين بأزياء وأشكال مختلفة.

استشهد بالآيات القرآنية في مواقعها، فكانت أوضح بيان في هذه القصة، لأنَّهما لم تقحم، وإنَّما جاءت تاجاً نورانياً في موضع الحاجة إليها. واستشهد بالحديث الشريف في موضعه المناسب، فكان روحاً ترفع من حياة هذه الرواية إلى آفاق أُخرىٰ.

واستشهد بالأحداث التاريخية والوقائع والآراء الفقهية وأسماء العلماء... إلخ.

كانت الرواية إسلامية وكفىٰ.

* * *

أمَّا الرواية ذاتها فهي غنية حقاً. أحداثها تدور في قرية (الربايعة) وتبدأ من انتشار زراعة العنب فيها، ونجاح هذه الزراعة إلى النقاش حول الزكاة الواجبة في هذه الثمار، ثمَّ إلى الحوادث التي جرت فيها واستغلال السلطات الحاكمة لها ممثلة بالمجلس المحلي، ثمَّ مخفر الشرطة، ثمَّ... ثمَّ انتقلت الأحداث لوقوع جريمة قتل مجهولة، ثمَّ ورود جثة أحد أبناء القرية من العراق بعد أن قتل هناك وشوهت جثته وهشم رأسه، وما تلا ذلك من تظاهر أبناء القرية ضد صدام حسين الذي راح ينكِّل بالمصريين البسطاء الذين أعانوه في حربه ضد إيران وصار يرسل جثثهم إلى مصر متحدّياً مشاعر الناس.

وتبع ذلك اعتقال العشرات من أهل القرية، ووجهوا للمتهمين التهمة الجاهزة بالعمل ضد الدولة والانتساب إلى تنظيم إرهابي متطرف، يهدف لتخريب البلد والسيطرة على الحكم. ثمَّ تطرَّق إلى قضايا البلد وما فيها من أمور غاية في الأهمية والدقة، وتطرَّق إلى احتلال الكويت وما تبع ذلك من كارثة عامة، وأنهى الرواية بانتصار الفطرة السليمة، انتصار الخير وبناء القرية التي صممت على أن تنتصر على مشاكلها بالعمل والصبر والاستقامة، وتطبيق الإسلام عملياً في حياة الناس، وفي علاقاتهم.

* * *

والشخصية الرئيسية في القصة هي (براعم) الفتاة الذكية، الشجاعة، المغامرة، التي درست حتى نالت الشهادة الإعدادية، مات أبوها، فخرجت إلى الحقل تزرع وتحصد، وقدمت النفقة لأمها العليلة وأختيها الصغيرتين، وكانت أول من أدخل زراعة العنب إلى القرية، نقلت ذلك عن أخوالها في القرية المجاورة (شِنراق). لقد زرعت أفدنتها الأربعة واستأجرت المزيد من الأفدنة حتى أصبحت بحق زعيمة زراعة العنب، وتزعمت ما يمكن أن يسمى (نقابة زرّاع العنب).

تعاملت مع الفلاحين والتجار، والسلطات بذكاء ومهارة حتى أطلقوا عليها «ملكة العنب» وكان رجال القرية وأطفالها ونساؤها يعرفونها ويحبونها ويحترمونها، لأنَّهم لم يعرفوا عنها ـ قط ـ ما يشين سلوكها، رغم نشاطها الواسع.

ومع كل الإغراءات التي قدمت لها للزواج من تجار ورجال سلطة (ضابط شرطة) وغيرهم، فلم تنزلق، ولم تقبل.

والشخصية الثانية هي شخصية الشاب الأُستاذ (محمَّد أحمد حسب الله) الرجل الصالح، الذي عرف بالحلم والاستقامة، وعدائه للكذب والنفاق والظلم والتعالم. يخضع للحق، وينصر المظلومين، ولا يخشىٰ في الله لـومة لائم. يلتزم شرع الله في سلوكه، بينه وبين نفسه، وبينه وبين الناس، وكان يصلِّي بالناس، ويخطب بهم في المسجد ويعظهم حين يرىٰ سبباً لذلك.

وهناك شخصيات أُخرىٰ كالعمدة، الذي كان من أُسرة طيبة يساعد على الخير، يسَّر الحج لمحمَّد حسب الله عدة مرات، ولديه من الأراضي والمواشي ما يكفيه، وأولاده يتولون في الدولة مناصب مرموقة، وأخـوه الكبير كـان من ضباط الثورة (وقد مات) وهكذا عاش آمناً محترماً من الجميع. وكان حازماً عند الحاجة، ولا يتردد في اتخاذ الإجراءات المناسبة إذا لزم الأمر، ويرفض الظلم.

وهناك شخصيات أُخرىٰ وأهمها الشيخ (أبو المجد شاهين) الرجل الزاهد الورع، لا يحمل شهادات علمية، ولكنه باستقامته وصلاحه وكثرة تفكيره، كان حكيماً، واعياً، بصيراً بالأُمور، عزوفاً عن المطامع لذلك نال احترام الجميع، وكان موئلاً لهم في الملمات لالتماس الحل الأفضل. وظهر صدق الرجـل، وتعلقه بربه حينما أخـذ مع المعتقلين، فلم يعبـأ، ولم يرتعـد، وظلَّ تعلقـه وأمله بالله أقوىٰ من جبروت الظالمين، حتى أفرجوا عنه وقد ارتعدت فرائصهم بما رأوه من كرامة الله لأوليائه.

وهنـاك عـدد من الشخصيـات الأُخـرىٰ من الفــلاحين بعضهم يمثـل الانحراف، والجريمة، وبعضهم يمثل السذاجة والطيبة... إلخ.

* * *

تبدأ أحداث القصة بإثارة الرجل الصالح (محمَّد أحمد حسب الله) في خطبة الجمعة قضية زراعـة العنب: «لقد تحـولت حقول قـريتنا إلى مـزارع للعنب، وأهملوا زراعة الحبوب، وهم لا يُخرِجون زكاة هذه الفاكهة المرتفعة الثمن...».

وساد اللغط بين الناس حول حق الزكـاة على العنب حتى صاح أحـد

مشاهير المشاغبين «إذا لم نأخذ حقنا بالشرع، فسوف نأخذه بالقوة».

وربَّما كانت الإشارة إلى زراعة العنب والتحول عن زراعة الحبوب قضية تعاني منها مصر وغيرها، حيث تغري الناس بعض الجهات من أجل الكسب العاجل، فإذا بهم بعد ذلك يقعون في الفقر والحاجة ويغتني قلة من الناس، بينما يبقىٰ الآخرون في حرمان، لأنَّ القضية تجارة وربح وليس حاجة ضرورية للشعب.

* * *

وجاءت براعم إلى بيت الشيخ محمَّد حسب الله وحذَّرته من الفتنة، واتهمته بأنَّه يقول عن زراع العنب بأنَّهم كفرة عصاة، ويحرض الناس على بعضهم ويفتح باباً للفتنة، وهددته بأنَّها ستمنعه من الخطبة، وقد فعلت في الأسبوع الثَّاني لأنَّه لم يكن خطيباً معيناً بل كان مدرساً.

وازداد اللغط في القرية، وقام المفسدون، والمنافقون باستغلال الأمر، فعقد (أحمد علام) رئيس المجلس المحلي اجتماعاً للأعضاء وخطب فيهم قائلاً: «إنَّ ما يهمنا أولاً هو أمن البلد، وتلاحم الحزب مع الجماهير. وأخوف ما أخافه أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين، وقضية الزكاة... قضية شخصية بحتة... ويا ويل من يعبث بأمن البلد».

لسان السلطة وشعاراتها. أمنها ـ وليس أمن البلد ـ فوق الحق والشرع والشعب. والهدف الأسمىٰ: تلاحم الحزب مع الجماهير. ثمَّ إلقاء التهم مباشرة على من يدعو لشرع الله بأنَّه متطرف متآمر ضد البلد والأمن والجماهير و...

ثمَّ قدَّم مع أحمد علام مع زبانيته شكوىٰ ضد الشيخ محمَّد حسب الله بأنَّه يحرِّض الناس على السرقات، ممَّا دعاه إلى التفكير بالسفر، لولا أنَّ العمدة نصحه بعدم السفر لكيلا يفسر ذلك تفسيرات سيئة. وشرح محمَّد حسب الله للعمدة، أنَّ ما قاله في خطبته لم يتعدَّ ما أفتىٰ به مفتي الدولة. ولكنَّ العمدة ردَّ عليه، بأنَّ البلد قد فسد وأنَّ التلفزيون والسفر للعمل بالخارج وفساد الإدارة والبضائع المستوردة وانهيار التعليم، والبعد عن شرع الله، والرشوة هي الأوبئة السبعة التي أدَّت لهذا الفساد. وكأنَّ الكاتب يشير إلى الآثار السيئة للتلفزيون

وما يذيعه من برامج ومسلسلات، وإلى شيوع الرشوة، والسفر للخارج وتعير الأحوال فجأة، فضلاً عن البعد عن شرع الله الذي يعد أكبر سبب للفساد. لقد أصبح الناس يشعرون بهذه الأخطار، وعبَّر عنهم العمدة في حديثه مع محمَّد حسب الله عن أحوال البلد والفساد الذي شاع فيه. وزادت السرقات في البلدة، ممَّا جعل براعم تزيد الحراسة على أراضيها. وكانت أمها قد فاتحتها بالزواج لكي تجد رجلاً بجانبها، ولكنها رفضت. وفي الجمعة الثانية خطب محمَّد حسب الله بعد انتهاء الصلاة، وأعلن أنَّه بريء من اللصوص والمعتدين، وإذا بصائحٍ يقول: قتيل في عنب براعم.

وهنا يدخل عنصر جديد، حيث بدأت التحقيقات لمعرفة منفِّذ هذه الجريمة. وأمَّا القتيل فقد كان واحداً من اللصوص المجرمين الذين تبيَّن سرقتهم للعنب مع قتله لزوجتين سابقتين، ولكنَّ التحقيق فشل في الوصول إلى المجرم الجديد. وهنا يوضح الكاتب على لسان الشيخ أبو المجد شاهين أنَّ سبب ذلك كله الخروج عن شرع الله وضعف الإيمان، ممَّا يجعل كل شيء، كالسرقة، والزنا، والقتل، وشهادة الزور، والرشوة مباحاً عند الناس في غياب الشرع وضعف الإيمان. ولا سبيل لاختفاء ذلك إلَّا بالعودة إلى الله وتطبيق شرعه.

وظلَّت القرية تشتغل بجريمة السلاموني، وكل واحد يفسر الأمر وفقاً لهواه: المدرس، والمزارع، والحشاش، والعمدة، والشيخ. أصناف مختلطة في المجتمع، وكل واحد يمثل شريحة منه. وهو يدلي برأيه. وكانت الحيرة تحيط بالعمدة حتى فكَّر بالاستقالة بعد أن وصف حالة المجتمع بما يلي:

«كثيراً ما تحدِّثني نفسي بأنِّي غير قادر على حمل المسؤولية، ويبدو لي أنِّي لم أُخلق لهذا الزمان... في الماضي كان كل شيء يسير على ما يرام.. لم تحيِّرني جريمة، ولم يستعص عليَّ لغز، أمَّا اليوم فقد تحوَّل الناس إلى شياطين، يحبكون جرائمهم، ويزوِّرون كل شيء، ويبرعون في تضليل العدالة، لذا أقول: لا وسيلة سوى الضرب... لأنَّهم كلهم المجرم والبريء عبيد، نحن في عالم العبيد...»[1].

---

(١) ملكة العنب/ ٣٣.

صورة محزنة للمجتمع، أمام الرجل الذي شهد تطوره، ورأىٰ كيف تزداد الجرائم والمفاسد، وتـتعقد الأمور.

ويعرض رأي أحد اللصوص في هذه المفاسد حيث يقول عن نفسه وهو (عوض العوضي): مشاغب وحرامي.. أعرف.. أنا لست جمـاداً.. أحس وأشعر، ولذلك لا بد أن أنتقم... كيف أنسىٰ ضـرب الأحذيـة على رأسي والسياط على جسدي. الجائع يسرق، والمظلوم يصرخ، ويفعل أي شيء»[1]. المظالم هي التي تشجع على الانحراف، الجشع والقسوة وعدم التكافل يؤدِّي إلى انحرافات وانتقام، ولذلك وظَّفَتْه براعم عندها، وكان ذلك سبيلاً لتقويمه.

وانتقلت القـرية فجـأة من الانشغال بجـريمة القتـل في وسطهـا، إلى التحدث بجريمة أُخرىٰ عندما أُذيع في مكبر الصوت عن موت شاب في الثلاثين من عمره. كان يعمل في العراق أثناء حربها مع إيران، وظلَّ هناك حتى بعد توقفها، ثمَّ قُتِلَ وأُرسل جثة عليها آثار العنف والاعتداء الجسيم، مع تهشيم الجمجمة. وكان القتيل ابن خالة الشيخ محمَّد حسب الله.

وعندما استُدعي الطبيب الشـرعي لفحص الجثة، تجمـع أبناء القـرية جميعاً أمام بيت الميت، وكانوا يتساءلون: لماذا يقتل العراقيون أبناءنا الذين خدموهم وضحُّوا أكبر التضحيات من أجلهم أثناء الحرب وبعدها؟

وهذه الأسئلة كانت تمثل حالة المجتمع المصري إزاء هذه الأحداث. ولكنَّ الأوامر صدرت للطبيب الشرعي عدم إذاعة تقريره على الناس ممَّا جعل العمدة يقول: هل التستر على الجرائم سياسة؟ لقد أصبح الفساد ينخر في كل شيء داخلياً وخارجياً! من سيدفع ديَّة هذا القتيل أو يعطيه حقه؟؟[2].

وخرجت القرية بمظاهرة صاخبة ضد صدام حسين، وهتف المتظاهرون ضد الإدارة المصرية التي تُفَرِّط في حق أبنائها. وكان من بين المتظاهرين أكثر من ألف خريج عاطلين عن العمل، ولذلك كانوا ينتهزون أية فرصة للتعبير عن غضبهم وسخطهم. وهتف المتظاهرون «يسقط صدام تسقط إسرائيل وأمريكا» ممَّا دعا الشرطة لمقاومة المظاهرة واستخدام العنف والقنابل المسيلة للدموع،

(١) المصدر السَّابق/ ٣٦.
(٢) المصدر السَّابق/ ٣٩.

فتفرق الناس، وبقي النعش وبجانبه محمَّد حسب الله، ممَّا جعل أحد العسكر يضربه فيسيل الدم من رأسه ثمَّ يأتي إليه أحد الضباط ويخاطبه بخشونة: أنت مُلْتحٍ، وتقود المظاهرة، لا بد وأنَّك من الجماعات الإسلامية، ثمَّ اعتقلوه[1] وهي صورة من الصور التي تجري في مصر وغيرها في هذه السنوات. انتقل حديث القرية إلى ما يجري في العراق، وإلى الضحايا التي تُرسَلُ كل يوم من هناك، وإلى سكوت الحكومة المصرية على ذلك.

وكثرت الاعتقالات، وجاءت الحملة التأديبية إلى القرية لتأخذ الشباب، وتجمع كل مُلتحٍ لأنَّه متهم. وكان رأي الحكومة على لسان الضابط رئيس الحملة، وهو يناقش العمدة: «إنَّها مؤامرة، ونعرف مَنْ دبَّرها، وسنقدمهم لمحكمة أمن الدولة، وستذهل عندما تقرأ اعترافاتهم»[2].

وهكذا اعتقل الناس، لأنَّه القمع ـ كما قال أحدهم ـ أصبح فناً له أُصوله وضوابطه، وفي هذه الأثناء كان لبراعم ـ ذات الطبيعة البريئة، والفطرة المستقيمة ـ موقف يدل على الشهامة، حيث أوكلت محامياً كبيراً، ودفعت أموالاً كثيرة للدفاع عن المعتقلين وهي تقول: إنَّهم مظلومون، أنا ليس لي صلة قرابة بأحدهم، لكن قلبي يوجعني من أجلهم، فهم أهل بلدي. وهذا يمثِّل رأي الناس الذين لم تفسد فطرتهم أزاء الأحداث دوماً، بعد أن اعتقلوا كثيراً من الناس حتى الحشاش (الراعي كشكل) واتهموه بالعمل في السياسة والتآمر والتطرف، لذلك كان أهل القرية يضحكون رغم المأساة على هذه التمثيلية التي تنفذها الحكومة كما قال أحدهم: هذا زمن التمثيل والتمثيليات.

لقد تربع التلفزيون على العرس، الآن أصبحنا نصنع الوقائع ونشكلها حسب هوانا، ليس لدينا واقعية، نحن نعيش أضغاث أحلام شريرة، نؤلف الأدوار ونركبها على الأشخاص[3].

لقد وصلت الاعتقالات إلى الشيخ الزاهد (أبو المجد شاهين) الذي وصف الأحداث بما سبق ذكره، وكان لاعتقاله هزة كبيرة في القرية حتى وقف

---

(١) المصدر السَّابق/ ٤٠ ـ ٤١.
(٢) المصدر السَّابق/ ٤٣.
(٣) المصدر السَّابق/ ٤٦ ـ ٤٧.

العمدة في أهل القرية وقال: أُشهدكم أنَّني أُقدم استقالتي منذ الآن، وأن أخلع عني العمدية كما أخلع حذائي هذا.

بهذه المقاطع كان الكاتب يصف واقع الحياة والأحداث التي تجري يومياً في مصر وغيرها على لسان أبطاله.

وإزاء تفاقم الأحداث فقد حضر نائب الدائرة «عبد السميع بك الطناحي» إلى البلدة وخطب في الناس ليسترضيهم، وشجب الظلم وسياسة القمع. فما كان من العسكر الذين جاؤوا للبلدة إلَّا أن جرَّ النائب من عنقه وهو يصيح: «إنَّني أتمتع بالحصانة» ولم يأبهوا به ـ بل جرُّوه خارج المسجد في احتقار واستهتار، وكالوا له الصفعات. وهذه صورة من الصور المسرحية لممارسة الديمقراطية التي يدَّعونها. وعندما أثارت صحف المعارضة القضية، صرَّح مصدر مسؤول من وزارة الداخلية بنفي الحادثة بشدة. وهي صورة من صور الكذب الذي تمارسه السلطات أمام الناس في كل يوم. بل كان البيان يقول بأنَّ قانون الطوارىء يطبق في أضيق نطاق، وأنَّه لا يُستخدم إلَّا ضد المتطرفين وتجار المخدرات، ومحترفي الإجرام.

هذا الموقف تكرر في مجلس الأُمَّة عندما قام نواب الحكومة، وقابلوا كلمة النائب الذي اعتقل وأهين أمام جمع من الناس بالصياح والاستنكار والمنع من الكلام واعتبروا كلمته مكيدة مدبرة، يقف وراءها رجال أحزاب المعارضة الحاقدين، والمتطرفون، وأذناب الإرهاب، وخاصة المتاجرون بالدين.

إنَّها مسرحية مأساوية يعرضها الكاتب بجرأة وواقعية ووضوح عن الديمقراطيات المكذوبة، والحوادث التي يراها الناس كل يوم. مظالم واعتقالات ـ وفقر ـ واعتداء على الكرامات، ومنع الحريات ومصادرة الأموال، ونشر الفساد، كل ذلك يجري وفق أساليب ماكرة، ومع ذلك فالتصريحات الرسمية ترسم الصورة المكذوبة المغايرة، وتتهم في كل قضية الأُصوليين والمتطرفين والمتاجرين بالدين ـ كما تقول ـ ويصل الأمر ببعضهم كما قال رئيس المجلس المحلي أن يحتقر الناس جميعاً فيقول: بلد لا تمشي إلَّا بضرب الحذاء.

وبدأ التحقيق مع المعتلقين ـ وصدر الأمر للجهات الأمنية بطبخ قضية

على مستوىٰ مقبول من أحداث قرية الربايعة، وكانت القاعدة تقول: إنَّ رجل الأمن لا يصح أن يحصر تفكيره في الواقعة التي ربما قد تكون تافهة في حقيقتها، ولكن عليه أن يمد بصره إلى جميع الاتجاهات، وأن يكون ذا خيال واسع، وقدرة على الإبداع، شأنه في ذلك شأن الفنان الموهوب. فإذا لم تكن هناك قضية فعليه أن يخترعها، وإذا كانت صغيرة فواجبه أن يبرزها في ثوب من الخطورة والإثارة، والهدف من ذلك كله شغل الرأي العام بقضية لها وزن وأبعاد، وبث الرعب في قلوب الذين يفكرون في المعارضة... ولا يصح التفكير كثيراً في القانون والعدالة وكرامة الإنسان وغير ذلك من الشعارات الضعيفة[1].

وجرت صور من التعذيب تثير الحزن والتقزز، يجيد الكاتب في وصفها «فتحوا عليَّ أبواب جهنم... كرابيج، عصي، صفعات، لكمات، ركلات، نار، والله العظيم نار.. إبر، خنق، دق، وأنا أتواثب كالقرد الذي وضعوه في فرن، تذكرت كلمات الشيخ الذي كان يحدِّثنا من قديم عن جهنم التي أُعدَّت للكافرين»[2]. ووصف الكاتب طريقة الاستجواب، وإملاء الاعترافات لصنع قضية، وحشر كلمات التطرف والمتطرفين.

ثمَّ يعرض موقف المحققين مع الشيخ (أبو المجد شاهين)، ذلك الرجل الزاهد الذي كان يتكلم بالقرآن، وهو متعلق بالرَّحمٰن وكأنَّه لا يرىٰ مَنْ حوله. ضربوه وصفعوه وهو لا يتزحزح، ولا يكف عن ترديد اسم الله. هددوه بالقتل فأجابهم: فعلها النمرود قبلكم وزعم أنَّه يُحيي ويميت. زادوا في الضرب والتهديد، فصرخ فيهم الشيخ: «الزم مكانك وإلاَّ صعقتك» وكانت الكرامة الإلٰهية لهذا الرجل الصادق المؤمن، حيث عجز الضابط عن القيام لتأديبه كما هدد، وخرج متثاقلاً وهموم الدنيا فوق رأسه. ثمَّ أُفرج عن الشيخ وطلب الضابط منه السماح بعدما رأىٰ من صدقه وصلابته وقوة إيمانه، وكان يقول للناس: «يا أبنائي المساكين... إنَّهم لا يملكون رزقاً لأحد» وكان الحل في رأيه لهذه المآسي التي يمر بها الناس على يد السلطات: «مزيد من الطاعة..

---

(١) المصدر السَّابق/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) المصدر السَّابق/ ٥٦ ـ ٥٧.

مزيد من الصبر، مزيد من العمل» ولكنَّ الناس كانوا يتساءلون أي عمل؟ كل شيء عند الحكومة سياسة ممنوعة، أيمكن أن يوجد الإنسان الحق وهو مسلوب الإرادة والكرامة؟

وكانت هناك جلسات أُخرىٰ للتحقيق، وعندما استُدعي (أبو المجد شاهين) للمرة الثانية، وجدوا منه عجباً، يرد عليهم بآيات من كتاب الله، ويُجيبهم بثقة وقوة وحزم، حتى أمر الضابط، وهو متأثر بالإفراج عنه على مسؤوليته. أمَّا بقية السجناء فقد استخدموا معهم أنواع التعذيب، وأغروا بعضهم بالمخدرات حتى يعترفوا، ويوقعوا على اعترافات مكتوبة عن «التنظيم المتطرف الذي يرأسه الشيخ محمَّد حسب الله، ويخطط فيه لقلب نظام الحكم وتدبير الاغتيالات السياسية»[1].

وبلغ الضجر مبلغه في القرية، ولم تنفع جهود براعم، وتوكيلها لبعض المحامين للدفاع عن المعتقلين، فراحت تتشاور مع بعض المقرَّبين فيما يجب فعله تجاه أبناء بلدها أيضاً وهي تتمتم: البلدة بلا عمدة، وضابط النقطة شاب صغير لا خبرة له، وكل شيء فاسد فاسد فاسد. لقد حرصت براعم تقديم العون لوالدة الشاب محمَّد حسب الله، وبقية عائلات المعتقلين. ثمَّ اتصلت بالمحافظ، وقدمت له تبرعاً للمشاريع الخيرية بمبلغ ثلاثين ألف جنيه، وأثارت معه موضوع المعتقلين، ممَّا دفع بالمحافظ الاتصال بوزير الداخلية فوعد خيراً.

ثمَّ اتصلت بإحدىٰ نائبات مجلس الشعب ممَّن يقولون عنها أنَّها واصلة إلى أبعد مدىٰ، ولها علاقة وطيدة بالكبار، وقد استطاعت هذه النائبة إنقاذ عدد من تجار المخدرات الذين قبض عليهم متلبسين، لذلك أرادت براعم أن تعرض الأمر على هذه النائبة.

وجدت مكتب النائبة غاصاً بالمراجعين وطلاب الحاجات وهم يتحدثون عنها: «امرأة ولا ألف رجل» «أعْوص المشاكل تحلها في دقائق، وبالتليفون» «أكبر رأس تنحني لها احتراماً».

لقد عرضت براعم القضية على النائبة «سعاد الدباح» ووعدت

---

(١) المصدر السَّابق/ ٧٨.

بمساعدتهم رغم أنَّها أشارت إلى صعوبة القضية، لأنَّها سياسية، وطلبت خمسة عشر ألف جنيه لقاء الإفراج عنهم، فأعطتها براعم ما تريد، وراحت تنتظر، حتى رتبت النائبة أمر خروجهم مع براعم، واستدعيت الأخيرة مع العمدة عبد الشافي للشهادة، وأحيل المتهمون للنيابة، فأنكروا ما أجبروا على الاعتراف به، ثمَّ أفرجوا عنهم وقد بدأت سياسة الدولة تميل نحو موقف أهل الربايعة من القتلىٰ الذين يشحنون كل أسبوع من العراق.

لقد حرص الكاتب على إعطاء صورة عن العصر والمجتمع والدولة، حينما عجزت كل الوساطات والوسائل القانونية في الدفاع عن هؤلاء المظلومين، استطاعت امرأة «أكبر رأس تنحني لها احتراماً» أن تحل المشكلة، وأخذت المبلغ الذي تريد إزاء ذلك. هذه صورة هذا العصر الذي يتحكم فيه النساء، والخمر والظالمون.

أمَّا أمثال محمَّد حسب الله المثقف، الواعي، المستقيم في سلوكه فلقد كان خطراً على الأمن. وأهل الربايعة البسطاء الذين يعملون من أجل أبنائهم فقد كانوا موضع شك من السلطات، وصارت القرية تحيطها الحراسات. لقد ضرب محمَّد حسب الله المثل في السجن رغم التعذيب الذي ذاقه. لقد صبر فلم يستغث أويبك، بل أغمض عينيه، والضربات تنهال عليه، وأغلق فمه، وكان قلبه يخفق بذكر الله، وأصرَّ على عدم فتح فمه أثناء الضرب حتى لو مات.

وحرص الكاتب أيضاً على رسم صورة إسلامية لنفس المؤمن الصابر الراضي، الذي يشعر بالطمأنينة، ويحمل الخير للناس. كانت هذه الصورة صورة الشيخ أبو المجد شاهين في بيته، في ليله ونهاره، في تحدثه عن تجربة السجن وما دار في نفسه، وكيف حاول الشيطان إغراءه حتى طرده.

ثمَّ تحدث عن زيارة براعم له، وعرضها عليه توزيع الزكاة على المستحقين، ففرح وقال: هذا عصر الحب يبدأ في قريتنا. فسألته براعم: كيف؟ فقال: عندما يكف الناس عن الجدل، ويبدؤون العمل، يتحقق الأمل، ويسود الحب والأمان، هل هناك أعظم من ألاَّ يبيت في قريتنا جائع بعد اليوم؟ وعلَّمها كيف يسامح المسلم الذين يسيئون إليه، ويعفو عمَّن ظلموه. ولا يريد للناس إلاَّ الخير. وفوجىء الناس في اليوم الثاني من زيارة براعم هذا بالناس يقولون: العراق هاجمت دولة الكويت واحتلتها.

أُفرج عن المعتقلين، وأقامت براعم احتفالاً كبيراً لاستقبالهم، واشترك أهل الربايعة كلهم بالاحتفال بعد أن استأذنت السلطات بإقامة الحفل لأنَّ الفرح، كما قالت، أصبح يصدر بمرسوم من الحكومة.

أمَّا الشيخ أبو المجد شاهين فقد صُعق من خبر احتلال العراق للكويت، لذلك ظلَّ في بيته ولم يشارك في استقبال الذين أُفرج عنهم، وبكىٰ وهو يقول: هناك المسلم يذبح أخاه المسلم، والسماء تصب الحمم على الأبرياء، والأرض تتفجر بالنار، والعمائر والمصانع والمتاجر ينهبها المغول ويدمرونها، هناك هناك، عذارىٰ وأيامىٰ ويتامىٰ يستغيثون، أليس هذا من علامات الساعة؟[1]

لقد كانت رؤية إسلامية واضحة للقضية، ولما حدث في الكويت، سجلها الكاتب بهذه العبارات على لسان الشيخ أبو المجد، بعيداً عن دهاليز السياسة وألاعيبها: هل رأيت أعجب من هذه الأيام يا امرأة؟ الذئب يريد أن يحكم بالعدل، وينصف الفقراء. إبليس يدعو الناس إلى المحبة والمواساة والحب والإيمان، وأعدىٰ الأعداء يجلس في منصّة القضاء ليحكم بين المتنازعين» رؤية واضحة، غابت عن كثير من الذين خاضوا في فتنة الخليج. وانقسموا في خطأ واضح بين مؤيِّد لهذا الذئب أو ذاك، ولم يدركوا أبعاد القضية. واستمرَّ الكاتب يعرض لهذه القضية عن طريق التطرق إلى مسألة المعتقلين، وموقفهم من العراق والقتلىٰ الذي كان يرسلهم كل أسبوع للقاهرة، وانقسام الأحزاب إزاء القضية، وحديث الناس المستمر عنها وعن السلطات وإهمال شؤون الشعب، والاهتمام بالمظاهر الكاذبة والدعايات الخاصة. وحرص الكاتب أن يتناول بعض هذه المسألة في جلسة من جلسات الحشاشين لأنَّ الأحداث أقرب ما تكون لمثل تفكير هذه المجموعة.

لقد انهارت مستشفىٰ البلدة، بينما اهتمَّت الدولة ببناء مسرح فخم لذلك قال الراعي كشكل لشلة الحشاشين الذين كان يجتمع معهم على شرب الحشيش: لن يحل مشكلة المستشفىٰ إلاَّ عبد الشكور.

وظنَّ الحشاشون أنَّه مليونير كبير من أهل القرية، وراحوا يتساءلون عنه،

---

(١) المصدر السَّابق/ ١١٠ ـ ١١١.

فقهقه الراعي وقال: يا مساطيل!! ألا تعرفون عبد الشكور؟

فأجابوا: عَرِّفْنا به يا فيلسوف الغبـراء. فقال: عبـد الشكور شعـلان يا بهائم.

ـ أقطع ذراعي إن عرفه أحد منكم لأنَّكم جهلة، إنَّه مندوب صنـدوق النقد الدولي وهو مصري الأصل من أهالي الشرقية، لكنه أمريكي الجنسية.

فسأل أحدهم: وهل الأمريكان يسمون عبد الشكور؟

فردَّ عليه آخر: ولم لا؟ فمدَّ أحدهم النرجيلة إليه قائلاً:

خذ يا بوش يا ابن مبروكة[1].

بهذا المشهد الساخر أشار الكاتب إلى حقائق السياسة، ومحرك الأمور والقوىٰ التي تـتحكم بعالم المسلمين، فتصنع الحدث، وتصنـع رد الفعل، وتصنع المسرح، وتأتي بالمشاهدين، والممثلين، وتصل إلى ما تريد. والناس كهؤلاء الحشاشين إزاء ما يجري.

لقد مضىٰ الكاتب مع جلسة هذه الشلة ليعرض أوضاع المنطقة بطريقة ذكية ودقيقة وساخرة.

قال الراعي كشكل: إنَّ تقارير عبد الشكور هي التي تمنحنا القروض أو تمنعها.

فردَّ أحدهم: نحن أهله، فلماذا يضن علينا؟

فأجاب: لأنَّـه أصبح أمـريكياً.. والأمـريكي رجل مصـالح ولا يعـرف العواطف ولا صلة الرحم، ولهذا رفعوه إلى المركز العالي.

علَّق أحد الجالسين: لو كان ابن مزاج لما فعل ذلك.

ردَّ فيلسوف الغبراء: المزاج شيء. والمصلحة شيء آخر.

فسأل رجل في آخر المجلس: هل يضـربون النـاس في أمريكـا على أردافهم كما يفعلون عندنا؟

فأدرك الراعي أنَّه يُعرِّضْ بقصة تعذيبه وضربه في أمن الدولة، فتضايق ثمَّ

---

(١) المصدر السَّابق/ ١١٦ ـ ١١٧.

ضحك وقال: أمريكا بلد العجائب.. الشعب هو الذي ينكِّل بالشرطة ولكل فرد الحق في تعاطي الحشيش علناً في الشوارع.

والنساء يعرِضْنَ أنفسهنَّ بأسعار في متناول الجميع، وبالساعة.

إنَّها بلد الحرية يا بهائم.. حرية الجنس، والمخدرات والسياسة. السجون هناك مثل فنادق الدرجة الأولىٰ».

ويمضي مع الحشاشين في أحاديثهم حتى يقول أحدهم: «صدقوني يا إخوان، خير لكم ألف مرة أن تكونوا حشاشين من أن تكونوا رجال سياسة. لقد ازددت يقيناً أنَّ الحشيش كالخبز يجب أن يحظىٰ بالدعم»[1].

فصل ارتفع فيه الكاتب إلى أُفق الفن الرفيع، إلى الحوار الناجح الذكي والتصوير الرائع، إلى التحليل الدقيق، والرمز الموحي، والصورة التي تظل تنداح حتى تصبح أفكاراً وأفكاراً كبيرة لدى القارىء. فصل مهم عن أمريكا، وحضارة الغرب، والسياسة، وعالم اليوم.

هذا الحوار الساخر، البسيط، وهذه الصورة تغني عن صفحات طويلة من تحليلات السياسيين، وأصحاب الرؤىٰ، والبيانات التي تـتيه، وتأخذ القارىء إلى عوالم لا يخرج منها إلَّا بالصرع والغثيان.

* * *

وتـتوالىٰ الأحداث حتى تـتكشف عن علاقة آثمة بين الراعي ومحاسن زوجة السلاموني القتيل، وتبيَّن أنَّ الراعي وعد محاسن بالزواج منها فاشتركا في قتل السلاموني، فقتلاه ونقلاه إلى مزارع العنب لبراعم.

أمَّا الأُستاذ محمَّد حسب الله فقد اكتسب احترام الناس، واحترام براعم وأصبح مع الشيخ أبو المجد موئل أهل القرية في أمورهم، وموضع الرأي والمشورة عند الجميع.

وكان محمَّد حسب الله يشعر بالعمل العظيم، والجرأة والصدق الذي ظهرت فيه براعم ـ وهي امرأة ـ أمام قضية أهل الربايعة، وكيف صرفت المال

---

(١) المصدر السَّابق/ ١١٨ ـ ١١٩.

وبذلت الجهد، وخاطرت بمكانتها ونفسها للإفراج عنهم، وكان يحس أنَّ لها ديناً في عنق أهل القرية جميعاً، وعنقه هو. لذلك وقف بعد صلاة الجمعة وخطب الناس وقال لهم: أُحدثكم اليوم عن ابنة الربايعة الشريفة العفيفة، الخيِّرة، النيِّرة، الآنسة براعم» وتكلم عمَّا فعلته لأهل القرية وذكر الأحاديث والآيات بشكر أصحاب الفضل: «من صنع لكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له».

ثمَّ انتهىٰ بعد تعداد مشاريعها وأعمالها قائلاً: هذا ـ أيُّها الإنسان ـ هو الإسلام الحقيقي، فإذا أردنا أن نحقق مبادىء الإسلام في الدولة، فلنبدأ بأنفسنا وأُسرنا، ثمَّ إلى قرانا الصغيرة، ولا ننتظر انقلاباً مفاجئاً يطبق شريعة الله. فالإسلام رجال قبل أن يكون سلاحاً ومعارك دامية، وكما تكونوا يولّىٰ عليكم».

واقترح أن يخرجوا معاً إلى بيتها لتقديم هدية تعبيراً عن حبهم واحترامهم لها ولأعمالها، وكانت الهدية مصحفاً.

صور أُخرىٰ من الصور التي ينجح فيها الكاتب في التعبير عن مشاعر الحب الحقيقي، الحب العفيف القائم على الإعجاب بالدين والخلق، والعمل الطيب، مع مشاعر الامتنان والشكر للعمل الطيب.

ثمَّ عرض لما ينبغي أن يكون عليه الناس في التماسهم تطبيق الإسلام ابتداءً من الفرد إلى الأسرة، إلى المجتمع.

* * *

لقد كانت صورة واقعية لجميع الناس على الخير، ودعوتهم للإسلام، ورسم صورة واقعية عن تطبيق الشرع في جزء من حياتهم، وانقلاب هذه الحياة إلى محبة ووئام وتعاون وانتعاش وتكامل.

* * *

لقد أكمل الكاتب الصورة عندما اتفق أهل القرية على التعاون وحل مشاكلهم بأنفسهم. ولكنَّ الدولة لم يعجبها ذلك فجاءت تتدخل، وتتهم الناس بأنَّهم يشكلون بيت مال للمسلمين، ودعتهم لوضع أموالهم في بنك

ناصر الذي أنشأته الدولة، ولكنَّ العمدة أفهمهم أنَّه لا حقيقة لكل هذا وأنَّ أهل القرية لم يشكلوا مجلساً، وإنَّما هم طيِّبون متعاونون في سبيل الخير.

* * *

وكذلك عاد مرة أُخرىٰ لأحداث الخليج بشيء من الحذر والدقة، وبطريقة مختزلة موحية عن طريق عرض لما يدور بين الناس.

قال: لقد كانت القرية لا تكف عن تداول القصص والأخبار التي تتعلق بأخبار الفارين من الغارات الأمريكية والأوروبية الرهيبة...

ثمَّ تحدث عن المتضررين، وعن الأخبار التي تُذاع عن التعويض على المتضررين حتى قال أحدهم: حتى إسرائيل أخذت تعويضاً بآلاف الملايين. فقال أحدهم ساخراً: خذ حسابك من التعويضات التي أُعطيت لمصر. فأجابه الآخر: عليه العوض ومنه العوض.

فضحك العمدة وقال: إنَّها وليمة... أقامتها أمريكا طبعاً، لكن للأسف أمريكا لا تعرف عوض العوض. ولهذا لن يناله نصيب منها...

إنَّها فتنة أيُّها الرجال، لقد انشقَّ العالم العربي إلى فرق وطوائف، وتبددت وحدة الأُمَّة الإسلامية، والظلم له أنصار، والحق له أنصار. فقال محمَّد حسب الله: صدقت، هي الفتنة، دماؤنا هي التي تسيل. وأموالنا هي التي تحترق، ومنشآتنا هي التي تدمر، نحن النار والوقود والقاتل والقتيل، والمنتصر والمهزوم، والذي يجني الثمار أمريكا وإسرائيل. لقد جثم على صدورنا احتلال جديد خبيث بعد أن قضينا القرون للتخلص من الاحتلال القديم[1].

* * *

هكذا عرض الكاتب لفتنة الخليج بطريقة مركزة تكفي لإعطاء القارىء صورة حقيقية أقرب ما تكون من الحقيقة والشمول.

أمَّا أهل الربايعة، فقد تعرضوا لمحنة أُخرىٰ لتكاتفهم، وفتحت تحقيقات جديدة عمَّا سموه ببيت مال المسلمين. وكانت براٰعم جريئة وواضحة وذكية

(١) المصدر السَّابق/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

عندما اسْتُدعيت للتحقيق حول هذا الموضوع الذي كان الناس يتحدثون عنه ويقولون: إنَّ الحكومة تريد أن تسد منافذ الخير.

إنَّهم لا يرحمون، ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل.

وطلبوا من براعم ذكر أسماء الذين ألفوا ما سمي بالمجلس فقالت:

اكتبوا أسماء أهل القرية جميعاً باستثناء عشرين أو ثلاثين فرداً. . سجلوا عني أنَّ شباب الربايعة من أفضل الشباب إخلاصاً ووطنية وخلقاً. وأسوأ ما في القرية المجلس المحلي ورئيسه. وأنَّ تطبيق مبادىء الإسلام الحنيف لا يحتاج إلى تصريح الحكومة، أو لرجل الأمن، لماذا تحرِّضون على بث الكراهية في نفوس الناس؟[1]

خطان متوازيان حرص الكاتب على أن يبرزهما معاً:

الدول الغربية وأمريكا والسياسة العالمية التي تحيك المؤامرات وتصنع الفتن، وتعمل للهيمنة على العالم الإسلامي، وقهر الشعوب وانتهاب الخيرات باسم الحرية والنظام العالمي وحقوق الإنسان. لقد حاربوا الإسلام والمسلمين، وكل عمل يهدف لتطبيق الشريعة الإسلامية باسم التطرف والأصولية والإرهاب، إنَّه النظام العالمي الذي رتَّبه اليهود. قتلوا الناس وسحقوا كل تطلع للتحرر إن كان أصحاب القضية من المسلمين ولم يحاسبهم أحد.

والخط الثَّاني خط السلطة الذي يسير موازياً للخط الأول في محاربة الناس واتهام كل مستقيم بالإرهاب، والقضاء على كل تعاون للخير باسم التطرف، ومنع الناس من أن يعبدوا الله في أنفسهم وأموالهم وعلاقاتهم، وكان الكاتب ناجحاً في ذلك. إنَّه عرض صورة لواقع المجتمعات هنا وهناك وهنالك بصورة ناجحة، من خلال الأحداث المتلاحقة، وقصة أهل الربايعة المشوقة.

* * *

وانتهت القصة بزواج محمَّد حسب الله من براعم، دون أن يكون هناك سعار جنسي وفتنة، وتأوُّهات ورسائل حب وصلات محرَّمة. إنَّها صورة عن الزواج الإسلامي في اختيار الرجل للمرأة والمرأة للرجل.

---

(١) المصدر السَّابق/ ١٤٨.

لقد حرصت على عرض القصة، والوقوف عند أهم ملامحها، لأُعطي دليلاً على نجاح القصة الإسلامية. نجاحها حينما يترك الكاتب التردد والخوف من هيمنة المناهج الغربية في تحديد ملامح الفنون ونقد الإبداعات المختلفة.

وكان الكاتب ناجحاً، حتى تمنيت لو أنَّه صنع ذلك من بعيد. فهل لنا أن نرىٰ أمثال هذه الروايات والقصص التي عرضتُ لها في هذا الفصل؟

* * *

هذا ملخص لرواية (ملكة العنب) حيث كان مضموناً وأُسلوباً رواية إسلامية، حلق الكاتب فيها بأُسلوب سهل عذب، وكتب رؤيته بحرية الأديب المسلم الذي يصنع فيه بنفسه، ويعرض صورة مجتمعه ويختار من الأحداث ما يوافق التصور الإسلامي، لقد كان صادقاً أميناً جريئاً في عرض الوقائع، والربط بين أحداث الفرد مع أحداث المجتمع مع أحداث العالم، وحقق هذا الترابط بين الأحداث، لأنَّ الفرد لم يعد يستطيع أن يعيش وحده بطمأنينة، أهل الربايعة البسطاء يتأثرون بتفكير بوش، وأحداث العالم.

وأهل بيت في قرية صغيرة تتأثر حياتهم بما يجري في الخليج أو غيره، ومستقبل الشباب الذي يتخرج من الجامعة متعلق بسياسة الدولة وقرارات صندوق النقد الدولي، والأُمم المتحدة.

هذه الرواية محلية، أم مصرية، أم عربية، أم عالمية؟

إنَّها كل ذلك رغم صفحاتها القليلة.

وفي أُسلوب الرواية لمحات بارعة، منها ما أوردناه من حوار الحشاشين عن بوش، وأمريكا، وعبد الشكور.

وهناك لمحات كثيرة منها ذلك الوصف الرائع للطبيعة مثل هذه السطور: «الطريق الضيق المرصوف يمتد تحت أسداف الظلام الحالك، والأشجار على الجانبين مثقلة بتيجانها المعتمة، وأبنية القرىٰ في الطريق تبدو ـ وكأنَّها هي الأُخرىٰ ـ نائمة كالبهائم الرابضة أمامها، والكلاب تنبح أحياناً بأصوات مبحوحة، وكأنَّها تعبت من طول النباح صباح مساء، وومضات شاحبة من النور تتلصص على سطح مياه الترع الضيقة الشحيحة»[1].

(١) المصدر السَّابق/ ٨٩.

وفي تصويره للتحقيق والتعذيب، وما جرى لبعضهم داخل السجن لمحات جميلة، ووصف رائع دقيق مثل هذا الوصف لمشاعر الشيخ أبو المجد شاهين عندما كانوا يستجوبونه: «يا رب خذهم بعدلك. ثمَّ يعود ويبتسم ويتمتم بينه وبين نفسه، حين رأتني الملائكة والضربات تنهال عليَّ كانوا يبتسمون.. يا فرحي!! الملائكة يبتسمون وأنا أسمعهم، لقد أعددنا لك قصراً في الجنة.. مع أنَّك لا تشعر بالألم الجسدي، والغريب أنَّ إبليس كان يرقص حولي ويغني.. قال لي: يا أبو المجد، لا تكن ساذجاً، والعب كما يلعبون بك، وناور ونافق حتى تنجو من شرهم، وتهنأ بحياتك. وهتف أبو المجد اغرب عن وجهي يا عدوَّ الله.

أخذتني يد حانية إلى ظل شجرة وارفة، وبالقرب مني ينبوع من نور فشربت، وشربت، حتى ارتويت، ونظرت مغمض العينين فإذا بي أرىٰ الأيدي البيضاء تحوطني وتمنع عني العدوان، وكأنِّي أسمع صوت (أبو ذرّ الغفاري) يقول: «أوصاني خليلي بقول لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فإنَّها كنز من كنوز الجنة» وأخذ يرددها، ويهيم في معانيها حتى كاد يغيب عن الوجود حوله»[1].

هكذا يصبح الحديث الشريف، والحادثة التاريخية، والماضي، والحاضر، في صورة واحدة، يمتد وجود المسلم حتى يخترق الآفاق ويصل بين الدنيا والآخرة. إنَّه يحقق صورة من صور القصة الإسلامية حقاً. وهذه صورة أُخرىٰ للفلاحة الساذجة التي تشربت السلوك الإسلامي ممارسة وواقعاً، ولم تملأ دماغها بالفلسفات والنظريات أو الأحكام والمناقشات. إنَّها أُم الأُستاذ محمَّد حسب الله الذي ربّىٰ جيلاً من الشباب في الأدب والأخلاق والفقه والعمل الجاد. أُمه مسعدة ببراءتها تخاطب الجاموسة، وتتشاجر معها، وتوصيها، وتفسر حركاتها، وتغضب منها. وهذا مشهد من مشاهد الحوار بينهما كما صوره الكاتب.

«إنَّها لا تكف عن الشجار مع جاموستها الحبيبة، وما زالت تتهم تلك الجاموسة بالتمرد والفجور وقلة الحياء، وغير ذلك من الصفات السلبية التي تنطبق على بعض الناس، وكأنَّ الجاموسة من البشر، تقول لها: (يا ناكرة

---

(١) المصدر السَّابق/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

الجميل، طالما سهرت إلى جوارك وأنت مريضة، وهـأَنذا أرعاك وأنت حامل، ألست خجلىٰ من نفسك؟ واليوم تعاندين وترفضين إدرار اللبن... لماذا؟ إنَّ مدة الحمل حتى الآن ثلاثة أشهر ولا بد أن تستمري في العطاء حتى الشهر السابع أو الثامن. أهو الخبث والجشع؟ إنَّ ثمن طعامك أكثر ممَّا يتكلفه طعامي أنا والشيخ محمَّد وأنت بهيمة، ماذا لو كنت تقفين في طابور الجمعية... آه يا ملعونة أنا أقدم لك كل شيء جاهزاً، حتى في الأيام السوداء التي قبضوا فيها على الشيخ محمَّد كنت تأكلين أكثر وأكثر، وأنا لا أضع الزاد في فمي، لو لم أكن أحبك لجلدتك كل صباح حتى تـدرِّي اللبن.. لكنك تعيشين مـدللة، منعمة، مكرمة، حتى في الوقت الذي كانوا يجلدون فيه ولدي. هل أقول إنَّ منزلتك عندي تقارب منزلة ولدي؟ لقد أفسدك التدليل فعلاً، وستدرِّين اللبن شئت أم أبيت، وإلَّا فسأبيعك في سوق الاثنين كما تُباع حثالة البهائم، ولن أذرف عليك دمعة واحدة»[1].

* * *

ومثل هذه القصة أو الرواية جديرة بأن تكون نبراساً أمام كتاب القصة، ومثـلاً للكاتب في بنـاء أدبـه الإسـلامي، وتعميق خـطه الأصيـل، وسيفعـل إن شاء الله.

---

(١) المصدر السَّابق/ ١٣١ ـ ١٣٢.